
مَـــالِك

بكري؛ محمود
مالك: رواية/ محمود بكري. - القاهرة: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع/ القاهرة: ٢٠١٤.
٢٨٨ص؛ ١٤×٢٠
تدمك: ٤-٦-١٠١-٨٥١-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٤/١٥٩٧٢

دار النشـــــــــر: دار الرسم بالكلمات للنشر والتوزيع
عنوان الكتـــاب: مالك
الكاتـــــــــــب: محمود بكري
تاريخ الطبــــــع: ٢٠١٤
تصحيح لغـــــوي: سارة صلاح
تنسيق داخلـــي: سارة صلاح
تصميم الغـــلاف: إسلام مجاهد
إشراف عــــــام: محمد المصري



 elrasm.blkalemaat
 elrsmblklemat@yahoo.com
 01061419555

مَـــالِك

رواية

محمود بكري



دار الرسم بالكلمات

إهداء

لكل اللي عايش في صفحة الذكريات.. ومش ناوي يقلبها.

الحياة سِكة سفر.. وأحيانًا تبدأ بسفر.

(1)

ركب القطار من الإسماعيلية متجهًا إلى القاهرة.. يفضِّل دائمًا ركوب القطار في هذه المسافات البعيدة.. يحب أن ينغمس وسط الناس ليتوه بداخل أفكارهم وعيونهم وخواطرهم.. أيضًا القطار بمربعاته الفريدة كان يعطيه ميزة الإنفراد بنفسه لمدة أطول وهذا ما كان يفعله على مدار السنتين الماضيتين.. وأخيرًا تحرك القطار.. قطار يكبره في السن بكثير.. شبابيكه زجاجها كُسِر بواسطة الشباب الذي يستعرض قواه في القطار دومًا وهم غالبًا من طلاب الجامعات.. كراسي بالكاد تحمل الركاب.. رؤوس تظهر من المربعات تحدِّد للناظر إن كان رجلًا أم أنثى.. لمبات نيون تالفة.. لم يعطِ اهتمامًا لأي شيء من حوله.. فتح الرواية التي كان يحملها في يده وبدأ الغوص في وسط سطورها وكلماتها وصنع لنفسه عالمًا آخر بين شخصيات الرواية، لم يكن يدرك وجود أشخاص آخرين معه على متن القطار، حتى إنه لم يلحَظ تلك الفتاة التي جلست بالقرب منه .كان مستمتعًا بما يقرأه خاصة أن الكاتب بدأ في وصف العلاقة بين بطلي الرواية و كان منتشيًا غير راغبٍ في أن يقطع حبل أفكاره وتخيلاته.. فجأة يفيق على صوت بائع غزل البنات وهو يمر بجانبه وبلهفة طفولية استوقفه:

-بكام دي يا حج؟

أجابه الرجل باستغراب:

-بجنية يا ابني .

تابع قائلًا:

-ممكن واحدة ؟

نظرة مريبة من البائع ممزوجة بشكٍّ في قواه العقلية:

-خد يا ابني .

أعطاه نقوده وغادر البائع المكان ضاربًا كفًّا على الآخر وهو يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله .

فتح الكيس سعيدًا بما هو مقدم عليه وطعمها الحلو الذي يدغدغ مشاعره وقلبه.. كان يأكلها باستمتاع.. ليسمع صوت ضحكة خافتة.. نظر في عدم اهتمام ليرى القمر متجسد في مخلوقة بريئة أقل وصف لها أنها حورية من الجنة؛ وجه ملائكي، عينان واسعتان.. حجاب يزيّن وجهها ويداري شعرها الذي خرجت منه خُصلة ليرى سواده ونعومته.. ألهذا فرض الله الحجاب لتداري به هذا الجمال؟ !نظر لها شاعرًا بالخجل وهو يتساءل عن سبب ضحكها.. هل لشرائه غزل البنات؟ أم ماذا.. إنها من الأشياء القليلة في هذا العالم التي تُشعِره بالسعادة وتعيده إلى عالم سعيد ابتعد عنه كثيرًا.. كم استاء أن تكون هذه الضحكة تقليلًا من شأنه.. أغلق الكتاب ونظر إليها نظرة احترام وأمسك كيس الحلوى ليمد يده إليها:

-اتفضلي..

أجابت في خجل:

-لا شكرًا ربنا يخليك .

احمرت وجنتاه وأعاد يديه إلى جانبه في حرج.. وحاول ألا ينظر إليها.. التقط كتابه مرة أخرى واستمر في القراءة، لكن هذه المرة بدون اهتمام لسير الأحداث حتى إنه أصبح غير مهتم بما تفعله البطلة بالبطل.. أخذ يسترق بعض النظرات لها.. حتى التقت نظراتهما في مرة فأشاح بوجهه في خجل.. ساد الصمت بينهما ولم يكن يسمع إلا صوت القطار المزدحم بالركاب وصوت القضبان المزعج .مضى بعض الوقت حتى سمع صوتها يناديه في حذر:

-لو سمحت..

نظر إليها ليجدها تبتسم برقة.. ابتسامة ألقت بحزنه وضيقه منها من نافذة القطار، أكملت هي قائلة بارتباك واضح:

-أنا آسفة أنا مقصدش اني أحرجك.. بس أنا مش متعودة أتكلم مع حد معرفوش .

ابتسم لها ابتسامة خفيفة كي لا تشعر بالحرج، ولكنها حاولت أن تقتل الشعور هذا بأن تعطيه فرصة ليغفر لها فقالت:

-طيب "ممكن حتة؟ "

نظر لها في اندهاش.. ولكنها كررت طلبها:

-ممكن حتة غزل بنات..

أجاب مازحًا: لأ..

ابتسمت وهي تُدخِل خصلة شعرها داخل الحجاب قائلة:

-إنت عارف الناس.. أي بنت بتتكلم أو بترد عليهم بتتفهم غلط .

نظر لها نظرة مؤكِّدة لكلامها ثم قال:

-اتفضلي حِتَّة وانا حِتَّة .

نظرت له نظرة تعجُّب كيف لشاب يبدو عليه العقل والرصانة أن يتعلق بشيء كهذا.. كيف له أن يستوقف البائع ويشتري ويبدأ في الأكل ببساطة هكذا من بين عيون الناس التي دومًا منشغلة بمراقبة بعضها البعض.. استمر حديثهما طول الطريق حول غزل البنات وكيف أنَّ شابًا في عمره مهتم بهذه الأشياء ذات الطابع الطفولي.. أوضح لها أنه رغم أنه رجل يُعتمَد عليه إلا أنه طفل لا يريد أن يكبر أبدًا.. سألته عن الرواية، حكى لها بعض التفاصيل وأغفل عن قصد تفاصيل أخرى حتى لا يُشعِرها بعدم ارتياح.. كان يتكلم وهي تنتظر أن يسأل عن اسمها حتى تتجرأ وتسأله عن اسمه هو أيضًا.. لم يفعل.. طال حديثهما وشعر هو أن هذه الصدفة بفعل فاعل.. بدأت تسأله عن حياته فيجيب دون تردد ولا يعلم السبب الذي جعله يسمح لها أن تتدخل في شئون حياته هكذا.. وهي أيضًا لا تعلم من أين آتت لها هذه الجرأة.. أيكون لأنه قلَّما تجد مثله في هذا الزمان.. شاب في مقتبل العمر ولكنه يحمل الكثير.. شعرت بهذا في نظراته العابرة لها.. في مراقبته للأشياء باهتمام وأيضا في لا مبالاته بأشياء مهمة من حولهاقترب القطار من محطته الأخيرة.. بدا عليها التوتر هل سيرحل بدون إبداء أي اهتمام للتواصل معها ثانية.. هل سيغادر دون أن يطلب منها رقمًا أو عنوانًا أو حتى يعرف مكان دراستها.. وصل القطار.. وصافحها أخيرًا وعرض عليها أن يوصلها ولكنها شكرته.. عرض ذلك من باب الذوق ولأنها تحمل حقيبة سفر كبيرة وهي رفضت من باب

الأدب أنها لا تريد إزعاجه.. مشى معها حتى خرج من الباب الرئيسي.. حاول أن يطلب رقمها ولكنه عارض نفسه ومسح هذه الأفكار من مخيلته فهو حقًا لا يريد.. استعد للذوبان وسط طوفان البشر في محطة مصر في اللحظة الأخيرة سمع صوتها الأنثوي العزب من ورائه:

-لو سمحت

نظر إليها مبتسمًا ومتسائلًا.. "نعم "

أجابته هي بابتسامة بسيطة:

-إنت راجع إسماعيلية إمتى؟

اقترب منها: بكرة إن شاء الله..

لم تشعر بكمّ البشر الذين يتحركون في حركات متقطعة حولها واستمرت في الحديث:

-هتجيب إيه من القاهرة؟

ابتسم ثم قال:

-أنا قولتلك اني رايح اجيب بضاعة من القاهرة.

"هو احنا مش هنتقابل تاني".. خرجت منها لا إرادية ولم تتمكن من إيقافها.. ليفحمها هو برده:

-معرفش النصيب مخبي إيه .

لم تكن تعلم من أين تأتي بهذه الإرادة، ولكنها تابعت:

-يعني إيه.. مش عايز تشوفني تاني..

ليرد هو الآخر نافيًا ما قالت:

-ليه بتقولي كدة أبدًا والله .

أردفت قائلة:

-طب ممكن رقمك.. أحب اطمن عليك لما ترجع .

سكت قليلًا يفكر ثم رفع رأسه إليها:

-بلاش أحسن لأني مبعرفش أكسب حد وحتى لو اتقابلنا تاني مسيرك هتمشي أنا مكمِّل لوحدي..لم يعطِها الفرصة لتسأله أو أن تتناقش معه فيما قال وقام بالاستئذان وانصرف مسرعًا.. وترك وراءه أنثى لا تُترَك.. فرصة لا تضيع.. أنثى يخجل منها القمر.. لا يريد أن يكسبها أو حتى يقترب منها لأنه حتمًا سيخسرها.. أدار ظهره لها وغادر على عجل.

خانته دمعة لا يدري على ماذا سقطت هل على إضاعة مثل هذه الفرصة أم على ما وصلَ إليه.. حاله من عدم القدرة على التعامل مع الناس والتواصل معهم.. أم على إحساسه بالخوف حتى من إقامة صداقات جديدة.. أصبح يكتفي بالقدْرِ الموجود من الأصدقاء بل مع الوقت تضيق دائرة الأصدقاء والمعارف بسبب انغلاقه على نفسه .هل سيظل هذا الكائن المستسلم لضربة واقع قامت بتغيير مجرى حياته .

نعم هو مالك شاب يبلغ من العمر 28عامًا، ولكنه يشعر أنه وصل من العمر أرذله بسبب ما مرَّ به وبسبب كمّ المسئوليات الملقاة على عاتقه.. يملك بشرة فاتحة نوعًا ما رغم الشمس التي يتعرض لها يوميًا في العمل، شعر بني لامع وعين رمادية لحية خفيفة مهندمة يحاول الحفاظ عليها دوما.. هو الذي اضطرته الظروف بعد وفاة والده أن يلغي فكرة دراسته

من الثانوي العام ويتجه إلى الدبلوم التجاري فهو أقل تكلفة وجهدًا.. وحتى يستطيع أن يجمع بين الدراسة والعمل لمساعدة والدته على متطلبات الحياة بعد أن وجد أن معاش والده لا يكفي لأي شيء.. بعد فتره أصبح هو ربُّ الأسرة المسئول عن كل شيء؛ عن أمه وعن أخته الصغيرة هاجر التي أصبح بالنسبة لها هو الأب والأخ والصديق، حاول أن يوفر لها كل ما تحتاجه لم يكن يريدها أن تشعر بأنه ينقصها أي شيء.. لذلك عمل في ورشة نجارة في إجازاته وأيام دراسته أيضًا.. كانت تقع بالقرب من مدرسته.. تعرَّف على صاحبها أثناء دراسته في المدرسة.. عمل بها خلال الثلاث سنوات.. كان صاحب الورشة يحبه ويعتمد عليه ولكنه لم يكن يحب هذا العمل لذا لم يستمر فيه.. مع مرور الوقت استطاع أن يوفر مبلغًا ليفتح محل عطور صغيرًا يستطيع من خلاله أن يكون رئيس نفسه في العمل.. ولهذا كان يسافر بشكل دوريّ إلى القاهرة وبورسعيد لشراء الخامات التي يحتاجها بسعرٍ أرخص ليوفر لفتاته الصغيرة هاجر ما تحتاجه لتحقق أحلامها التي بدأتها بدخولها كلية الهندسة ، ورغم أنه كان يخاف عليها مشقة الدراسة في هذة الكلية إلا أنه رضخ أخيرًا تحت إصرارها ولم يوفر جهدًا حتى يجعلها على مستوى جميع أصدقائها إلى جانب أنه دائمًا ما كان يعطي أمه المال حتى تبدأ في تجهيز أخته حتى لا يفاجأ يومًا بمتطلبات الزواج إذا ما تقدم شخص مناسب لخطبتها .كان يعلم أنه محبوب في وسط أصدقائه وإن كانوا تناقصوا على مدار السنوات الأخيرة حتى أصبحوا لا يُعدواعلى أصابع اليد الواحدة لأن هناك بعض الأشخاص في المجتمع ينظرون نظرة دنيا لمن هم أقل منهم على المستوى التعليمي دون النظر إلى المستوى الثقافي

أو الفكري مع أنه كان من النابغين في دراسته الابتدائية والإعدادية ولكنه النصيب.

* * *

نحن في زمن الشهادات.. مع أننا جميعًا نعلم؛ لن تخرج عن حيِّز البرواز التي تُحاصَر داخله على أحد حوائط المنزل وتضطر لنقلها معك لبيت الزوجية لتكون وسام شرف أمام عائلة العروس وكل من يزورها في بيتها الجديد.. دولة الورق وهي حقًّا من ورق .

* * *

استطاع مالك أن يحافظ على تطور عمله حتى يواكب التغييرات التي تحدث من حوله بدأ يقرأ في مجال عمله على الشبكة العنكبوتية ويستخدم التكنولوجيا في مجال العطور،، أصبح أكثر حِرصًا على أن تكبر تجارته ويكبر معها.. يريد أن يمسك الدنيا بيده.. عانى كثيرًا ويريد لنفسه الخلاص.. أصبحت هاجر أكثر إلحاحًا عليه لتقديم ورقه في الجامعة المفتوحة (كلية التجارة) كانت ترى في أخيها الشخص الجيد الذي لا يحظى بتقدير من البعض لأنه لم يحز الشهادة الجامعية وترى أن هذا الأمر أصبح عائقًا في حياته بل ويسبب له مشكلة نفسية.. وافق هو بعد إلحاح مرير منها وأصبح يذهب على فترات متباعدة إلى الجامعة.. لم يحاول الاختلاط بباقي الطلبة كان بينه وبين نفسه يشعر أنه أقل منهم ولذلك أثر الابتعاد.. لم يكن أقل منهم على المستوى المادي أو مستوى الذكاء، ولكنه دومًا يشعر بنقص بسبب عدم دخوله الثانوية العامة.. تلك المرحلة الوهمية عند الجميع.. يعتقد الأهل أن بدخول ابنهم الثانوية

العامة أنه أصبح ناجحًا في حياته وإن كان لم ينجح فيها على الاطلاق.. كابوس الشهادات يؤثر على جميع تعاملاتنا الإنسانية.. انتبه من شروده بعد أن مرَّ هذا الشريط أمام عينه وركب الأتوبيس العام ليصل إلى بيت خالته في القاهرة كان يفضِّل أن يذهب لشراء ما يحتاجه والعودة في نفس اليوم، ولكنه لم يكن مستعدًا لأن تصب عليه خالته وأمه غضبهما ،،كان يفكر في هذه الفتاة التي قابلها ليرى أمامه مزيجًا من ماضٍ مرير ومستقبل مضيء.. هل يمكن لفتاة مثل هذه أن تمحو المرارة من داخله وتعيد إليه نفسه مرة أخرى هل تستطيع أن تُنير حياته المظلمة؟

سرعان ما ذهبت هذه الفكرة من رأسه مع صوت الكمسري وهو يصيح: "مين تاني مدفعش يا حضرات؟"

* * *

الحيرة ليست قرارًا.. ولكن أنت وحدك من سيتحمل نتيجة الاختيار.

(2)

"إيه دا.. مش ممكن إيه اللي أنا عملته ده طول الطريق بتكلم مع واحد معرفوش لا ومش بس كدا بعد ما نوصل أسأله عن رقمه دا أنا أتجننت رسمي، وبعدين هو ماله دا.. رده كان غريب جدًا.. معقولة أنا أتجرأت لأول مرة في حياتي ويكون رد الفعل بالشكل دا.. معقولة في ولد يتصرف بالطريقة دى وميستغلش الفرصة؟ دا حتى مسألش عن اسمي" هذا ماكان يدور بداخل رأس حور تلك الفتاة العشرينية صاحبة العين العسلية.. التي تدرس التجارة في السنة الثالثة منها.. ظلت تقف في منتصف الطريق غير مصدقة ما حدث.. فجأة تفيق من غفلتها على صوت سائق تاكسي:

-تاكسي يا أنسة؟

-لا.. أه..

-لأ ولا أه يا بنتي.. رايحة فين كده؟

ركبت التاكسي وطلبت منه أن يصطحبها لمدينة نصر حيث تقيم مع عمتها للدراسة.. تمرُّ بعينيها بين اللوحات المعدنية للسيارات غير مصدِّقة ما حدث.. وتحدِّث نفسها:

-فجاة اكون جريئة كده وأنا اللي عمري ما اديت فرصة لحد يكلمني أصلًا.. إيه اللي انا عملته دا؟؟.. هو شكله محترم أوي ولما لاقاني عملت

كده افتكرني بنت مش كويسة، أكيد عشان كده مرضيش يدِّيني رقم تليفونه ورد عليا بالطريقة دي.. إيه دا.. أووووف.. ياريتني كنت سافرت مواصلات ومركبتش قطر..

انزعج سائق التاكسي:

-مالك يابنتي بتكلمي نفسك؟ !

أجابته بحدة:

-لأ مفيش حاجة.. ممكن تمشي أسرع شوية لو سمحت؟

تابع هو قائلًا:

-حاضر يا أستاذة، هطير يعني من بين العربيات .

نظرت للسائق بغضب لكنها لم تتكلم.. عادت لتسرح في هذه الشخصية الغريبة.. مَن هذا الشاب الذي يتصف بما تحمله الرجولة من معنى والطفولة أيضًا.. انتبهت أنها لم تسأله حتى عن اسمه.. فعادت تحدِّث نفسها مرة أخرى:

-أنا أصلًا مش لازم أشغل بالي بيه كده ولا كأني شُفته.. عادي يعني زَيه زَي أي حد وكويس إني مش هقابله تاني عشان محسش إني محرجة أوي كده لأني أنا اللي رُحت كلمته.. ياريتني ما نزلت من بيتنا النهاردة.. وكنت سمعت كلام ماما ونزلت بكرة الصبح على الجامعة على طول.

تفيق من غفلتها على صوت السائق:

-هنا يابنتي ولا أدخَّلِك جوَّا شوية .

-لا شكرًا هنا كويس.. غادرت التاكسي ووصلت البيت وهي تشعر بالاختناق.. لا تحتمل كلمة من أحد.. دخلت البيت وهي تنادي على سمر بنت عمتها بعد السلام على عمتها وزوجها:

-سمر.. إنتي يابنتي يا سمر انتي فين؟

-أنا هنا يا حور تعالي؟

محدِّثة نفسها بنبرة يملؤها العتاب:

-إيه دا مش قلت كأني مشوفتوش بنادي على سمر ليه عشان أحكيلها.. ثم رأت سمر أمامها فهمَّت قائلة:

-وحشتيني أوي يا سمر .

-وانتي كمان وحشتيني.. بس مالك كده شكلك متغير.. في حاجة ؟.. أمك مزعلاكي أو أبوكي؟

لا تدري من أين تبدأ.. وماذا ستقول عن تلك الكارثة التي لم تدرِ من أين هبطت عليها ولا حتى تعرف لها مسمى.. هذا الشاب الذي عصف بها بهذه الطريقة لكنها بدأت قائلة:

-لا، تعالي أقعدي عايزة أحكيلك على حاجة حصلت ومش عارفة ولا فاهمة أي حاجة ومن ساعتها وأنا حاسة إني مخنوقه أوي.

-قولي خضتيني .

قامت بسرد الأحداث لسمر.. تحكي وهي مضطربة حزينة لما حدث وسمر تستمع باستمتاع.. لأنها تعلم جيدًا أنه ليس من السهل أن تقع حور في مثل هذه المشكلة.. وفجأة صاحت قائلة:

-وسيبتيه يمشي من غير ما تعرفي عنه حاجة؟

أجابتها بنبرة تحمل بعض الحدة واللوم:

-لا والله إنتي اللي بتقولي كده، ما إنتي عارفة اني عمري ما عملت أي حاجة زي دي بس شخصيته هي اللي خلتني أتجرأ وأكلمه.. أنا مبتكلمش على شكله والحاجات التافهة بتاعتك دي.. بس بجد تحسي إنه شايل أوي ، راجل يعني .

عارفة يا سمر حسيت إنه غير كل شباب اليومين دول.. حسيت فيه رجولة مش موجودة.. نظرة عينيه لغزل البنات بطفولة مش موجودة حتى في الأطفال.. تركيزه في الرواية.. حتى لما حكالي شوية حاجات عنه حسيت قد إيه هو إنسان كويس ويُعتمَد عليه.. بس اتصدمت لما طلبت منه اننا نتكلم تاني ورَد بالطريقه دي.. ممكن يكون شاف إيه في حياته يخليه يقول الجملتين دول.. أجابتها سمر ببلاهة:

-هو قالِّك كده؟

-أه والله بس قالها وهو عينيه بتلمع وفيها دمعة كدةأقولك على حاجة.. كان نفسي أسأله أو حتى أتكلم معاه تاني بس مقدرتش منظر عينيه خلاني اتمسمرت مكاني ومقدرتش أنطق وبعدين هو مِشِي علطول .

-بقولك إيه، أنا رأيي تعالي نقوم ناكل، إحنا مستنينك وأنا بصراحة كدة جعت أوي.. وسيبك من الموضوع دا.. دا يا إما مجنون يا إما معقَّد وفي الحالتين أهو مِشِي والحمد لله انك مش هتعرفي توصليله تاني.. إنتي مش ناقصة عقد والنبي مش كفاية كل لما حد يقرب منك متوافقيش عليه زي مايكون عايزة تترهبني .

أخذت حور نفسا عميقا كأنما تعيد ترتيب أفكارها:

-هو انا عشان مش لاقية حد مناسب يبقى عايزه أترهبن؟ !

ابتسمت سمر لائمة لها:

-لا يا حبيبتي، إنتي مبتديش فرصة لحد أصلًا إنه يكلمك .

-أهو دا حسيت، إن هو اللي أنا مستنياه..

-ريَّحي نفسك وبطلي تفكير فيه ويلا عشان ناكل بدل ما عمتك تخش علينا وسين وجيم بقى مش ناقصة.

حاولت حور أن تداري ضيقها وهمت بتغير الموضوع فسألتها:

-قوليلي صح إنتي عاملة إيه مع عبد الرحمن؟؟

-هشوفه بكرة في الكلية.. استني أوريكي هلبس إيه بكرة وأنا رايحة الكلية .
جاء صوت أم سمر من الصالة "يلا يا بنات الغدا جاهز."

-أنا هقوم أحضَّر مع ماما السفرة لغاية ما تغيَّري هدومك .

-ماشي يا سمسم.. هاجي وراكي .

أبدلت ملابسها وداخلها ألف حكاية وحكاية تنتهي بأسئلة تريد لها إجابة:
- يا ترى دا حكايته إيه بقى..

اقعدي يا حور حماتك بتحبك عاملينلك محشي وبط عشان ترمّي عضمك .خرجت هذه الكلمات من عمتها لترد سمر قائلة:

-حماتك بتحبك وتبعتها بضحكة عالية .

-بس يابت مترخميش عليها كلي يا حبيبتي .

عقبت مبتسمة:

-ربنا يخليكي يا عمتي.

قامت حور وسمر بجمع الأطباق والدخول سريعًا للمطبخ للقيام بالأشغال الشاقة من غسيل الأطباق وتنظيف المطبخ من بقايا الأكل.. لم تستطع حور التغاضي عن تفكيرها وشعورها تجاه هذا الشاب:

-يا سمر أنا مش قادرة أبطل تفكير في الواد ده هو ازاي كده.. هو في ولد ممكن يبقى تقيل للدرجة دي..

نظرت لها بسخرية ثم أجابت:

-لا يا بنتي دا مجنون.. فين التقل في كده.. التقل دا لو عارف أنكوا هتتقابلوا تاني.. إنما دا كده شكله معقد أو مجنون .

-بس متقوليش عليه مجنون..

-حور.. مالك يا حبيبتي.. إنتي تعبانة ولا سخنة..

نظرت لها نظرة جامدة تنقل ما بداخلها من ضيق ثم قالت:

-ولا تعبانة ولا حاجة.. بصي أنا بعد كده هروح كل أسبوع ومش هسافر غير في القطر وكدا يبقى احتمال كبير أقابله تاني .

- ده هيخلييكي تكلمي نفسك ولا إيه.. فوقي يا حبيتي كده الله يخليكي.

-لأ، بس أنا حاسة إنه هو وراه حكاية كبيرة أوي ، عندي فضول هيجنني إني أعرف إيه اللى يخلي شاب يبقى بالحالة دي نفسي لو في حزن جواه أقدر أشيله وأخليه ينساه.

-شيلي ياختي شيلي إنتي حرة.. اللي بيشيل إربة مخرومة بتخر عليه هوَّ .

-بس بقى اسكتي وخلَّصي اللي في إيدك .

-خلصت اهو.. يلا بقى عشان أوريكي هلبس إيه بكرة.

خرجت حور في خيبة أمل بينما سمر في منتهى السعادة لأنها ستقابل حبيبها في الغد بينما حور لا تعلم أين ومتى ستلتقي بهذا الشاب ثانية، أم ياترى هل ستلقاه ثانية وتفهم منه هذا اللغز.. هي لا تدري، ولكنه لا يريد الذهاب من خاطرها وبالها حتى جزء من الثانية، ولكنها أفاقت على صوت سمر:

-إيه رأيك بقى.. قمر صح؟؟

-طول عمرك يا سمسم.

* * *

وصل مالك لمنزل خالته في القاهرة.. يتكون من أربعة طوابق.. باب خشبي قديم بزجاج عفا عليه الزمن ضغط على الجرس.. وبعد مزيج من السلام والضحك مع أبناء خالته الذي يحاول ألا يكون بائسًا معهم.. لأنه يزورهم مرة واحدة في الشهر فلا يريدهم أن يكرهوا لقاءه.. قام بتغيير ملابسه وجلس على الأريكة منتظرًا وجبة الغداء.. ينظر للأثاث البسيط المتراص.. المروحة التي تصدر صوتًا رخيمًا.. مسك ريموت التلفاز ليحاول أن يجد

قناة يشاهدها، ولكن يقاطع تقليبه في قنواته صوت خالته القادم من المطبخ:

-عملتلك الأكل اللي بتحبه يا حبيبي .

أجاب في حياء:

-ربنا يخليكي يا خالتي .

-مكسوف يا واد؟

-لا والله دا إنتي أمي التانية .

-طب يلا بقى عشان ناكل عشان لو هتنزل تجيب الحاجات بتاعة شغلك.

قام مسرعًا لتناول وجبة الغداء ليستطيع أن يكمل يومه الطويل .

خرجت من خالته بنبرة صوت سعيدة بقدومه:

-منوَّر يا حبيبي..

-دا نورك يا خالتي والله .

جلس ليأكل وهو صامت لا يحاول فتح حديث مع أي منهم على الطعام.. كانت خالته تعرف طباعه لذلك لم تحاول أن تضغط عليه تبادلت معه كلمات بسيطة تسأله فيها عن أحواله هو وأمه وهاجر أخته.. ليجيب على سؤال خالته:

-والله يا خالتي أمي دي ليها الجنة.. من بعد موت أبويا الله يرحمه مفكرتش حتى إنها تزعلنا واستحملت كتير لوحدها لغاية ما كبرت وشيلت معاها شوية .

وكأنها تأخذ منه المايك لتضيف ثناءً على شقيقتها:

-وقبل ما يموت أبوك والله يا مالك.. إنت مش عارف أمك كانت بتعمل إيه وانتوا صغيرين عشان تساعد في مصروف البيت.. كانت بتربِّي الطير وتروح تبيعه وبفلوسه تجيب طير تاني صغير وباقي الفلوس تدخَّلها في مصروف البيت.. كانت بتاخد من لقمتها وتديكوا.. ستك زمان يا مالك كان عندها ماكنة خياطة..كانت بتعملنا الفساتين عليها.. أمك مهانش عليها تبيعها وأخدتها عشان منها تكون من ريحة سِتَّك ومنها تعمل عليها حاجات ليكوا.. ولما كانت الحالة بتديق عليها أوي كانت بتخيَّط بيها فساتين وهدوم للجيران .أمك تعبت عشانكوا أوي يا مالك .

نظر لخالته بحنيَّته المعهودة ثم أردف قائلًا:

-والله يا خالتي أنا نفسي أريحها بس هي اللي مبترضاش تسمع الكلام . دايمًا تستنى لما أنزل وتبدأ شغل على الماكنة.. شوية تعمل هدوم لهاجر وشوية تانين تعمل الكام حتة للجيران.. أختك دماغها ناشفة أوي يا خالتي.

-إنت لازم تفتخر بيها.. أمك تستاهل انك تريَّحها .

انتهى مالك من حديثه مع خالته موافقها الرأي وأنهى أيضًا طعامه على عجل بسبب ازدحام جدول مواعيده.. فهو يريد الذهاب لأكثر من مكان في نفس اليوم ليستطيع العودة للإسماعيلية مبكرًا في صباح اليوم التالي .همَّ بالقيام ودار بينهما حوار قصير كعادتها:

-الحمد لله تسلم إيدِك يا خالتي.

-هو انت كدا أكلت؟.. شكل الأكل معجبكش .

-بتقولي إيه بس يا حبيبتي.. أبدًا والله تسلم إيدك.

-ألف هنا يا حبيبي.. هعملك الشاي بقى .

-ماشي، أكون انا لبست بقى عشان الحق أخلَّص مشاويري بدري.

-ربنا يقويك يا مالك.. أنا مش عارفة أقولك إيه يا ابني ربنا يخليك لأمك يارب ونفرح بيك .

أجاب مبتسمًا:

-هاجر الأول يا خالتي.. أطمن عليها الأول وبعد كده نشوف الموضوع دا .

-لا يا مالك والنبي يا ابني فرَّحني بيك قبل ما أموت.. إنت عندي أغلى من ولادي .

-بعد الشر عليكي يا حبيبتي.. متقوليش كده .

شرب الشاي على عجل ونزل ليُحضِر التزامات وبضائع تلزمه في العمل.. تغيَّرت ملامحه بمجرد نزوله من المنزل.. مالك المبتسم في وجه الجميع.. هو حزين وصامت مع نفسه.. ركب الأتوبيس بين الناس كان يحب أن يذهب إلى القاهرة ليتوه بينهم وبين زحامهم حتى لا يعطي لنفسه فرصة للتفكير في ذكريات الماضي إلا أن هذه المرة تغلبت الذكريات عليه.. صوت تمتمة من شفتيه:

-وحشتيني..

-عاجبك اللي انا فيه دا..

-عاجبك الحيرة واللخبطة دي..

-مش كان زماني بفكر فيكي انتي..

-مكانش في مجال في خيالي حتى اني أفكر في حد تاني، الله يسامحك..

-فجأة تظهر صورة مضيئة للأنثى التي كانت أمامه في القطار.. محدثًا نفسه:

-وانتي بقى عايزة مني إيه؟

-الحمد لله يارب انك بعدتها عنِّي..

-هي شكلها طيبة وأنا مش ناقص وجع تاني..

-جاء صوت من داخله يسأله: هتفضل كده.. سُنِّة الحياة أنك تتجوز..

-لالا مش شرط.

-إحنا على اتفاقنا مكملين لوحدنا.

-مش عايز تبقى أب؟

-نفسي بس لأ مش هينفع .

-ليه لأ؟.. ما اللي باعك بيعه انساه.

-ولا عارف ابيعه ولا عارف أنساه .

-والحل؟

-اخرس خالص مش عايز حلول .

-لا مانت لازم تفوق لنفسك بقى .

-أنا كويس كدة.

-لا لازم تلاقي حل.

-قولتلك اخرس .

بنبرة حزينة قائلًا:

-هيَّ حصلت كمان إني أكلم نفسي؟!

نزل مالك وسار بين الناس يركِّز في التفاصيل.. كم يحب النظر لملامح الناس ويرى ما بين أعينهم من أسى.. أو يرى ضحكاتهم في عيونهم.. مشى كثيرًا وذهب إلى الحسين ومن هناك إلى العتبة.. مشى المسافة كلها وهو مستمتع، كان يحب الحالة التي تعطيها له هذه الأماكن القديمة.. توقف في العديد من الأماكن ليشتري كل الأشياء التي يحتاجها.. لم يشعر بنفسه ولا بالوقت إلا بعد فترة طويلة ليفاجأ بأن الساعة أصبحت الحادية عشرة ليلا.. مرَّ الوقت سريعًا..

-هشيل الحاجات دي كلها ازاي وأطلع بيها الأوتوبيس؟؟

-خد تاكس يا مالك متبقاش بخيل.

-مش بخل والله، أنا بوفَّر عشان أمي واختي.

-إيه يعني مجتش من مرة يعني.

-لأ.. حتى المرة هتفرق معايا .

-الحاجة ممكن تتكسر في الاتوبيس .

-اسكت شوية خليني أفكر .

ركب تاكسي بعد ما غلبته نفسه في النقاش وأنه لن يستطيع أن يركب الأتوبيس مع كل ما اشتراه ومع خوفه من تلفه أو تكسيره فيضيع جهده هباءً.. وصل البيت ووضع حقائبه في الصالة.. اعتذر لخالته عن التأخير.. تناوَل العشاء معها ودخل الغرفة لينام.. أمامه يوم سفر طويل ومتعب.. وضع رأسه المتعب على الوسادة وأمسك بهاتفه في يده بتردد:

-هاتصل..

-مينفعش.. مش كل يوم هفضل أقولك أنه مينفعش..

-هاتصل

-هتتعب يا مالك..

-هنااااااااام .

-أحسن بردو..

نام بينما شفتاه ظلت مستيقظة تتمتم بكلمات خفيفة:

وحشتيني..

نفسي أشوفك..

ليه عملتي فيا كده..

الله يسامحك

* * *

استيقظ منهكًا من اليوم الشاق الذي قضاه بين عربات القطار والتنقل بين المحلات على ما يريد.. ألقى نظرة على هاتفه ليجدها العاشرة.. فابتسم في سخرية من نفسه ومن موقف خالته معه لأنها لم توقظه.. نزل من على السرير وبدأ يناديها:

-يا خالتي .

-أيوة يا حبيبي صباح الفل.

-كنت عارف أنك مش هتصحيني بدري.. ليه كده بس؟

-يا حبيب خالتك أنت نايم متأخر وجاي من برا مهدود.. سيبتك تنام براحتك عشان عندك يوم طويل .

-ينفع كده تضيعي عليا قطر الساعة 8الله يسامحك .

-معلش يا حبيبي، اركب في 12بقى يلا عشان جهزتلك الفطار. قال بنبرة ساخرة ممزوجة بمرح:

-انتي وأمي نسخة واحدة.. أنا كل يوم بتأكد أنكوا أخوات من اللي بشوفه منكم .

ضحكت خالته ضحكة هيستيرية من القلب ثم قالت:

-يخيبك يا مالك.. يلا البس وتعالي عشان نفطر.

ردَّ عليها بنفس نبرة المزاح:

-طب عايز فول بالزبدة.. وحطي عليه ليمون .

-حاضر يا حبيبي.

-ربنا يخليكي ليا يارب يا خالتي .

-ويخليك ليا ولأمك وأختك يارب.

-عارف، أنا لو كان عندي بنت.. والله كنت جوزتهالك غصب عنك .

-الحمد لله.

-نعم يا ولا أنت.

-بقول الحمد لله على ريحة الفول الحلوة أوي دي وبعدين الفول هيبرد كدا .

-أيوة كده اتعدل..

-حبيبتي إنتي والله.

-ربنا يحميك يابني .

غادر المنزل بعد تناول الإفطار المتين والوصايا العشر ووصلة الدعاوي. "ربنا يوقفلك ولاد الحلال وربنا يرزقك ببنت الحلال ."

وصل المحطة ووضع حقائبه في الأماكن المخصصة لها وجلس يكمل الرواية التي لا حظ لها معه.. تذكر تلك الأنثى التي لم ينسَها أصلًا والتي يريد أن يقنع نفسه أنه لا يتذكرها وهي تجول بخاطره دومًا.. قام مالك يبحث عنها في القطار.

-رايح فين ؟

-اسكت أنت دلوقتي..

-قولي بس بتدور على إيه وأناهريَّحك..

-على أساس إن أنت عارف كل حاجة؟

-أه بس قولي..

-بدور على البنت اللي كانت راكبة جمبي امبارح .

-مش موجودة.

-وعرفت منين؟

-كان معاها امبارح شنطة سفر يعني مش جاية يوم وراجعة .

لم يصدق نفسه التي تجادله دومًا في كل كبيرة وصغيرة وقام يبحث عنها في القطار كله.. يبحث عنها بين الوجوه ،،عيناه لا ترى ملامح الناس.. كأنه يلعب لعبة الصور والمطلوب هو إيجاد الصورة الصحيحة.. بحث عنها في جميع عربات القطار بدون أدنى أثر لها .

-مش قولتلك أنك مش هتلاقيها..

-اسكت بقى أنت دلوقتي.. مش طايقك..

-حاضر هسكت .

عاد مكانه وفتح الرواية على أمل أن تأتي وتجلس أمامه مرة أخرى ويتكرر الموقف، ولكن لم يحدث.. مرَّ على أحداث الرواية مرور الكرام.. يرى الكلمات ولكن لا يفهمها.. تفكيره في مكان بعيد تمامًا.

-مالك.. !

-نعم ،، عايز إيه من زفت..

-بتفكر في مين دلوقتي؟

-في اللي كانت حبيبتي واللي عملت فيا كده.. اللي خلتني مش حاسس بطعم أي حاجة في الدنيا.. اللي خلت البنات كلهم عندي زي بعض.. ملهمش لازمة.. خلتني أقلق من أي حد.. أقولك على سر.. خلتني أخاف منهم.. كأن اللي عملته فيَّا درس وكل اللي هيقرب منِّي هيتعلموا فيا أنا .
-كداب يا مالك انت بتفكر في البنت بتاعت امبارح .

-لا خالص.

-أومال كنت بتدوَّر على مين من شوية .

-تصدق أنا مش هتكلم معاك أصلًا .

وهذه آخر كلمات يحدث بها نفسه قبل أن يتحرك القطار ويحاول هو أن يبعد هذا الوجه عن مخيلته محدثًا نفسه:

-أنا معرفهاش ومش عايز أعرفها ولا عايز أقابلها تاني حتى .

اقترب وصول القطار إلى المحطة.. أمسك مالك بهاتفه ليتصل بصديقه مصطفى مثلما اعتاد في كل مرة يسافر إلى القاهرة .

-ألو.. أنت فين يابني.

-في البيت، أنت فين ياعم وصلت ولا لسه؟

-قدامي ربع ساعة وأوصل ع المحطة.. قابلني بقى عشان معايا شيلة كل مرة.
-ماشي ياعم هتلاقيني عندك قبل الميعاد .

-حبيبي يا درش.. متحرمش منك.

مصطفى هو الصديق الوحيد الذي استمر على صداقته لمالك منذ مرحلة الطفولة، كان يحبه بشدة ويفتخر بصداقته به ولطالما حاول مساعدته قدر الإمكان بدون أن يجرح مشاعره أو يُشعِره بذلك وهو الذي ساعده في الحصول على وظيفة حكومية بشهادته المتوسطة.. أمكنه التقديم على وظيفة كاتب إداري بإحدى الإدارات الحكومية.. حفظ له الجميل ودامت صداقتهما.. وصل الصديقان إلى المحل ووضعا كل الأشياء هناك، أصر مالك على مصطفى أن يذهب معه إلى البيت فتح الباب ليفاجأ بهاجر تجري تجاهه مسرعة وتحتضنه.. فضمها له وقال:

-إيه يا هاجر هو أنا بقالي شهر مسافر دا أنا مكملتش يومين .

-بردو وحشتني وبعدين أنا غلطانة .

-خلاص ولا تزعلي يا ستي، إنتي كمان وحشتينى أوي، أومال فين ماما؟

-في المطبخ بتحضّر الغدا .

-طب كويس عشان مصطفى معايا خليها تعمل حسابه بقى .

-حاضر من عنيا.

دخل إلى غرفته هو ومصطفى بينما والدته وأخته تنتهيان من تحضير الطعام .

-في إيه شكلك متغير في حاجة حصلت؟

- عايز أحكيلك على حاجة كدة .

-إيه شُفتها ولا إيه؟

-لا خالص دا...

-دا إيه بس مالك يابني؟

سرد ما حدث معه في القطار لصديقه بالتفصيل وبيَّن له كيف أنه في رحلة العودة حاول أن يبحث عنها، ولكن دون فائدة .

-كويس أوي مش احنا اتفقنا أنك هتسيب نفسك للفرصة المناسبة اللي تخبط على بابك.. أجابه بنبرة يملؤها الحزن:

-مقدرتش.. صدقني معرفتش.. هي ملاك.. بس أنا مالك.

رد عليه مصطفى بابتسامة صافية:

- مالك أحسن واحد في الدنيا دي.. ماله مالك يعني؟

-مش عارف يعني ماله مالك..

-لا مش عارف ولو هتقول كلام كل مرة يبقى تسكت أحسن .

-حاضر .

-يا مالك احنا بقالنا سنتين بنتكلم الكلام دا كل فترة وبنتفق إنك لازم تفوق لنفسك.. يا ابني دي محبتكش .

-أنا حبِّتها.. عملت عشانها كل حاجة.. انت أكتر واحد عارف أنا عملت إيه .

-والنصيب بعدها عنك.

-لا مش النصيب.. هي اللي بعدت.. مشيت.. باعتني .

-تقوم تفضل تحبها بعد كل دا.. انت مش عارف هيدلوقتي عايشة فين وازاي ومع مين .

-متقولش.. بالله عليك متقولش مش عايز أعرف .

-لازم تعرف.. لازم تفوق لنفسك بقى .

-أنا كويس .

-لا مش كويس.. عاجبك نفسك وأنت بتضحك في كل الوشوش ومش عارف تضحك من قلبك؟ !

-أه.

-يا مالك أنا صاحبك وأخوك وفاهمك أكتر من نفسك .

-لا انت مش فاهم حاجة.. انت مفكرني آلة حديد هقول لنفسي انسى يبقى هنسى.. أنا بشر وحبيت وكانت نتيجة حبي إني أخدت على دماغي.
-طب اهدى بس هخلي هاجر تعملنا شاي ماشي؟

-خليها تعملك انت بس .

-لا هخليها تعمل 2عشان متقلقهاش عليك انت عارف هي بتحبك قد إيه وأنت بقى متخليهاش تلاحظ عليك حاجة.. بدأ مصطفى ينادي على هاجر:

-هاجر.. يا هاجر.

جاء صوتها من المطبخ:

-أيوة جاية أهو .

دخلت عليهم الغرفة لتجد مالك يجلس على سريره ثم بدأ مصطفى بالكلام:

-كوبايتين شاي بقى والنبي أصل أخوكي جاي من السفر مصدع .

قالت:

-أنا بجهز الأكل عشان تاكلوا .

-لا أنا مش هاكل شبعان .

اتجهت بنظرها لأخيها قائلة:

-مالك يا مالك في إيه؟

رد مصطفى عليها:

-مالوش هو بس مصدع، اسمعي الكلام واعملي شاي يا هاجر .

-حاضر يا مصطفى.

خرجت هاجر وفور خروجها بدأ مصطفى بالكلام:

-إيه ياعم مش قولنا متخليهاش تلاحظ حاجة.. انت مبتخافش عليها ليه .

-أنا !؟.. أنا مفيش سبب مخليني مكمل غيرها هي وأمي.. مانت عارف أنا بعمل إيه عشانها .

-عارف ياعم بس قولي بقى البت دي حلوة للدرجادي؟

-أه لطيفة .

-موزة صح.. طول عرض إمكانيات.

-مبيصش للبنت بالنظرة دي.. واحترم نفسك .

-بتغير عليها ولا إيه؟

-أغير على مين يا عبيط بس انت عارف إني مبحبش أتكلم عن بنت من الناحية دي .

-تصدق أنا بردو كنت بقول عليك أنك محترم.

-ماشي..

-وبعدين.. هي عايشة حياتها ومبسوطة وأنت اللي موقَّف حياتك.. الأيام كل يوم تعدى عليك وأنت زي ما انت.. ليه يا مالك مينفعش كده.. اللي خلقها مخلقش غيرها؟؟

-لا..

-نعم.

-مخلقش غيرها ليا.. مش عارف ومش قادر أكون غير ليها .

-وهي مش ليك.. مش بتاعتك.. سابتك وراحت .

-اسكت بالله عليك.. اسكت بقى .

-حاضر.. هسكت بس فوق بالله عليك ركز بقى في حياتك لازم تبقى أقوى من كدا.. على الأقل عشان هاجر.

سمعت هاجر اسمها وهي تقترب من الغرفة:

-مين بيجيب في سيرتي.. اتفضلوا الشاي .

-احنا نقدر نستغنى عنك .

بدأت تتكلم بنبرة لوم وعتاب:

-مالك يا مالك ؟.. ماله مالك يا مصطفى؟

أجاب مصطفى عليها قائلًا:

-يا بنتي جاي تعبان ومرهق من السفر ما إنتي عارفة تلاقيه هلك نفسه لف عشان يجيب اللي هو عاوزه كل مرة وملحقش يستريح خالص .
-بجد يا مالك.. الكلام اللي بيقولة مصطفى دا بجد .

-أه يا حبيبتي بجد.. متخافيش عليا .

-ماشي ياعم، أسيبكوا أنا تكملوا كلامكوا .

-تابع مصطفى قائلًا:

-طيري إنتي بقى يابت من هنا .

قالها تلطيفًا للأجواء كي لا تشعر هاجر بمعاناه أخيها.. ثم اتجه لمالك:

- فوق بقى يا صاحبي لنفسك .

-حاضر.

بدأ مصطفى يداعبه قائلًا:

-عجبها فيك إيه البنت بتاعة القطر دي؟؟ والنبي دى نفسها حلوة أوي .

-معرفش والله.. أصلًا أنا ببقى قاصد أني أبقى ملخبط عشان محدش يركز معايا أو ينتبهلي .

-ماشي ياعم توم كروز .

-ولا توم كروز ولا حاجة.. بس الفكرة أن كل حاجة من بعدها ملهاش لازمة حتى إني أهتم بنفسي.. ههتم بنفسي عشان خاطر مين.. أنا عايش عشان هاجر وبس .

نبهه مصطفى قائلًا:

-هاجر دي اللي باقيالك في الدنيا.. ربنا يخليك ليها .

أجاب مالك في حذر:

-ولو مخالانيش يا مصطفى البت دي أمانة في رقبتك.

اجابة مصطفى بنبرة لوم وعتاب:

-عيب عليك أختك دي في عينيا.. دي أختي أنا كمان.. وبعدين ياعم فك بوزك دا هيخليك وهيطول في عمرك كمان عشان تحضر فرحها وتحجج أمك ولا مش ناوي .

-نفسي والله يا درش ادعيلي.. هانت أهي ربنا يكرمني وأودي أمي عمره في الموسم اللي جاي دا.

-ربنا يديك على قد نيتك .

-تاعبك معايا علطول يا مصطفى.. معلش أنا ماليش غيرك .

-ولا تعب ولا حاجة.. انت أخويا يابني.. صاحبي.. وأنا بقى عاجبني أن ملكش غيري.. تخيل .حاسس كدة بفخر أن الراجل الفخم دا صاحبي أنا.. بتفشخر بيك قدام أصحابي يابني .

ضحك ضحكة عاليه ثم تابع قائلًا:

-بتتفشخر بيا أنا.. ربنا يكرمك.. انت الوحيد اللي بتفهمني أو بتحس بيا.. انت الوحيد اللي عارف حبيتها قد إيه .

انزعج مصطفى من كلامه ثم قال:

-ربنا ينتقم منها مطرح ماهي قاعدة يا شيخ اللي معكننة عليك حياتك دي .

نهاه مالك بشدة:

-قولتلك قبل كده أكتر من مرة متدعيش عليها ولا قدامي ولا من ورايا .

-حاضر.. خلاص يا مالك.. اهدى بس ثم أتبع قائلًا:

-أنا همشي بقى عشان اتاخرت.

نظر له متعجبًا ثم قال:

-يابني استنى تاكل معانا.. مش هتمشي.

-لا والله هتأخر أوي كدة وعشان عندي شغل أنا كمان .

ردَّ مالك بامتنان:

-معلش يا درش.. أنا معطلك معايا من زمان.

-ولا عَطَلة ولا حاجة.. هعدي عليك في المحل بكرة.. سلام .

-خد بالك من نفسك وكلمني لما تروح..

-سلام يا درش .

غادر مصطفى وهو يفكر في حال صديقه وكيف لفتاة أن تفعل بشاب كل هذا بعد أن فعل ما بوسعه لإسعادها، فهو بينه وبين نفسه يعلم أن هذا لمصلحة صديقه بعد كل شيء فهي لم تستحق شخصًا مثل مالك.

استعد للنوم محاوِلًا عدم التفكير في أي شيء مما قيل بينه وبين مصطفى حتى تذكر:

-يا هاجر.. يا هاجر.

-أيوة يا حبيبي.. أجيبلك تأكل؟

-لا هنام وصحيني الصبح وانتي نازلة رايحة الكلية.

-حاضر.

تذكر أنه يريد أن يعطيها مصروفها فنادى عليها:

-خدي هنا صح عايزك في حاجة .

-مش فاضيالك على فكرة.. في غسيل عايز يتنشر.

-في فلوس يابت تعالي.

صاحت بمرح وهي تتقدم نحوه:

-حبيبي يا مالك.. هاااات .

-عايزة كام يا حبيبتي؟

خرج منها صوت تمتمة خفيف فقاطع تفكيرها قائلًا:

-إيه بتحسبي إيه هما 300جنية بس .

-طب خليهم 400.

-يابت مانتي عارفة البير وغطاه وبعدين أنا كل يومين بظبطك .

ربتت على يده ثم قالت:

-أنت عارف أني مبطلبش فاسمع الكلام وهات كمان 100.

-أمرك يا ست هانم.. هو أنا مستني منك تطلبي.. خدي بس عارفة لو مشوفتش الامتياز منور السنادي.. هعلقك على باب التلاجة.

-لا يا عم هي ناقصة ضغط أبوس إيدك ادعيلي بس مش أكتر .

- عمومًا يلا اتكلي على الله بقى عايز أصلي العشا وأنام.

-طب ادعيلي وأنت بتصلي أعدي صافي التيرم دا.

-أقولها امتياز تقولي صافي.. يلا يابت بدل ما أقوملك .

خرجت هاجر من الغرفة ليست سعيدة كما ينبغي.. تدرك جيدًا أن أخاها يحمل همًّا كبيرًا ولكنها لم ترد التحدث في هذا الموضوع تجنُّبًا لوجعه أكثر وأكثر ولكنها فرحه لأنها الآن تملك المبلغ المطلوب لتنفيذ مخططها الذي تعبت تفكيرا فيه منذ شهر.. وبصوت عاااااالي .(Yes)

خرج صوت مالك من غرفته قائلًا:

-يلا على البلكونة في غسيل عايز يتنشر .

قام وتوضأ ثم بدأ يصلي العشاء .

يعلم جيدًا أنه يحب الله، ولكن لا يدري لماذا اختاره بالتحديد ليختبره هذه الاختبار الصعب

هذا الاختبار الذي عرج بقلبه لسابع سماء ولم ينزل بعدها .

سجد لله وسأله أن يريح قلبه ويهديه.. سأله أن يكون كل هذا حلم وتعود حياته كما كانت بأحلى شيء فيها مريم تلك التي استطاعت أن تنير حياته فجأة وجعلتها تتدرج لتصل إلى الأسود الغامق فجأة .

انتهى من صلاته مستغفرًا ربه لتطرقه لأمور لا تليق بالصلاة، ولكنه لا يملك سوى الدعاء متمنيًا من الله الاستجابة، ودخل سريره لينام.. محدثًا نفسه:

-غمَّض يا مالك عينك ونام..

-أنام !؟ هه !؟.. طب ازاي؟

زي الناس الطبيعية يا مالك..

-وهو أنا طبيعى زي الناس؟؟

-أه طبيعي مالك يعني المهم حاول أنت متفكَّرش فيها ونام .

-مش عايز.

-معلش .

-مبحبش الكلمة دي .

-تقدر تقولي معلش على إيه ولا إيه .

-نام بقى.

-وحشتني أوي .

-نام يا مالك.

-حاضر تصبح على خير.

نمت يا مالك.. مااالك.. وأنت من أهل الخير.

* * *

الأحلام هي النافذة الوحيدة التي نستطيع أن نرى من خلالها ما لم نستطع الحفاظ عليه في الواقع أو من سلَبَتْه الحياة مِنَّا عنوة.

(3)

-إنتي فين يا بنتي.. كل دا بتلبسي أنا في الموقف بقالي ساعة مستنيكي .

-خمس دقايق بس يا حبيبي وهكون عندك .

-الخمس دقايق دول مخلصوش من نص ساعة.. ماشي حُكم القوي .

-إنت حبيبي متزعلش بقى.. أقل من خمس دقايق هكون عندك .

-ده على أساس انك هتطيري يعني؟؟

-خلاص بقى ياحبيبي.. جاية اهو باي باي .

-سلام يا مريم .

-طالما قلت يا مريم تبقى زعلان منِّي بجد بقى .

-نبقى نشوف الموضوع ده لما تيجي .

-طيب ماشى.. سلام .

-سلام !!

يقف مالك منتظرًا وتمر الخمس دقائق ولم تأتِ، يتصل عليها لا تجيب.. ياترى أين هي.. ماذا تفعل كل هذا الوقت حتى أنه بدأ يشعر بالقلق عليها.. فجأة يقف بجواره طفل لا يزيد عمرة عن خمس سنوات .

-عمو عمو..

-نعم يا حبيبي .

-اتفضل الورقة دي .

أخذ الورقة مندهشًا ثم وجَّه كلامه إلى الطفل الصغير:

-مين اللي أداك الورقة دي يا حبيبي.. لكنه لم يجد له أثرًا .

ينظر مالك في الورقة بعدم فهم ثم يتذكر أنه يفعلها فيها دومًا فيبتسم ابتسامة خفيفة ثم ضحكة عالية ظهر فيها ضرس العقل.. أه يا مجنونة .

-بخ..

ضحك من المفاجأة ثم قال:

-أنا فعلا بحب واحدة مجنونة وعيِّلة

-أنا مش عَيّلة..

-انتي حبيبتي حقك عليا متزعليش .

-أنا مش هتحرك من مكاني إلا لما يجيلي اعتذار رسمي بقى .

-يلا بقى ربنا يهديكي عشان منتأخرش نتكلم في العربية .

ركبا سيارة أجرة سويًّا، ولكنها اشترطت أن تكون بجانب النافذة حتى تستطيع أن تسابق أعمدة الإنارة والسيارات، ركبت وجلس بجوارها مالك وهو ينظر إليها يتأمل تفاصيل وجهها وهو يتمنى أن تنطبع بداخله لتلتفت هي إليه وهي مبتسمة، أمسكت بذارعه واحتضنته، مالت برأسها على كتفه.. فنظر لها في تعجب ثم قال:

-مالك يا حبيبتي في حاجة؟ وبعدين إيه الجنان اللي إنتي كاتبهولي في الورقة دا؟

لكنها لم تتحرك أو تعدل من وضعها أجابت وهي تحتضن ذراعه: وحشتني .

-وانتي كمان.. بس مالِك كده مش مطمنلك.

تنهدت قليلا ثم أخذت أنفاسها من قلبه ثم قالت:

-لا يا حبيبي.. أنا بس مبسوطة أوي اني خلصت امتحانات ومبسوطة عشان أنت كنت بتساعدني طول الفترة اللي فاتت بجد أول مرة ميجليش رهبة من الامتحانات وأحس إنها عدت بسهولة .الحمد لله .

-مبسوطة يعني؟

-أها.. مبسوطة أوي أوي بقى .

-أومال لو شُفتي أنا جايبلك إيه معايا يا أوزعة .

بنظرة شرسة وحاجب مرفوع عن الآخر:

-بس متقولش أوزعة عشان مش أعورك.

-تعوريني أنا.. طب وريني كدة.

بنظرة أشد شراسة وبضم الحاجبين ورسم علامة 111،أظهرت أسنانها وقامت بعضِّه في كتفه.. ردًا تلقائيًا على الأسنان التي غُرِسَت في كتفه:

-آآآآه.

صاح بعض الركاب في نَفَس واحد: مالك يابني.. !؟

أجاب وهو ينظر لها نظرة تعلمها جيدًا أن لهما حسابًا آخر:

-لا مفيش، رجلي اتخبطط بس في الكرسي.. ثم اتجه لها قائلًا: عاجبك كدة؟

-أنا مش أوزعة.

أخذ يدها برفق وقام بوضع قُبلة على كفها وبدأ يهمس في أذنها: -إنتي أحلى أوزعة في الدنيا.. إنتي أحلى من كل البنات.. إنتي أصلًا ست البنات.. إنتي حبيبتي وأمي وبنتي وأختي.. إنتي دنيتي كلها.. أنا ماصدقت لاقيتك.. إنتي نوَّرتي حياتي أصلًا.. قاطعته كعادتها:

-متحاولش تتوهني بالكلام ده كله هتأكِّلني فين النهارده؟؟

فنظر لها بغضب ثم قال:

-يعني انا أقولك كل ده وانتي همك على الأكل بس.. تصدقي قفلتيني في اليوم.. أقول للسواق ينزلك هنا عند أقرب كمين.

-أهون عليك يا لوكة .

قالتها بنبرة حانية أفقدته صوابه لكنه أجاب:

-الصراحة لأ.. بس مفيش حتة رومانسية بعد الكلمتين دول.. وبعدين أنا مرضتش أأجل الخروجة ليوم أجازتي.. قُلت آخر يوم امتحاناتك لازم أفسحك.. يعني رُحت المحل الصبح ورُحت غيرت وجيتلك.. شُفتي بقى إنتي أهم حاجة ازاي.. طب أقولك على سر .

-قول يا قلبي.

-أنا أول ما شُفتك حسيت أن وجع وتعب اليوم كله راح.. حسيت كدة بطاقة أول ما شُفتك.. دا بقى تأثيرك إنتي ولا تأثير الحب .

تركت ذراعه وعدلت ياقة بلوزتها ثم قالت في غرور:

-أنا طبعًا يابني .

ضحك هو على فعلتها ثم قال:

-طبعًا يا ماما.. إنتي دخلتي حياتي من هنا.. وأنا بدأت أحس بطعم الدنيا من هنا.. يعني إيه لما أعمل حاجة تفرحك أحسها في عينيكي.. لما أسمع كلامك قد إيه بحس براحة في راحتك.. بحبك.فاجأته قائلة:

-على جمب هنا يسطى والنبي .

ثم اتجهت له: شُفت ياعم آخرة النحنحة كنا هنعدي المطعم اللي بناكل فيه كل مرة .

غادرا السيارة وبحركة طفولية صعدت على الرصيف وهو على الأرض، ولكنه تكلم مقاطعًا حركاتها الطفولية:

-تصدقي قفلتيني منك.. ومش هقولك كلام زي دا تاني .

-يا حبيبي برخِّم عليك.

-حاسس إن إنتي وحشتيني جداا.

-مش أنت حبيبي اللي كنت رافض أننا نشوف بعض طول فتره امتحاناتي عشان تسيبني أركز في المذاكرة بس؟

-طيب ممكن تغمضي عينيكي .

-لأ..

-اسمعي الكلام في مفاجأة .

-أيوة عارفاها.. أكيد جايبلي شكولاتة زي كل مرة .

-لأ مجبتش شيكولاتة أنا.. يلا بقى غمضي .

-حاضر.. حُكم القوي .

في هذه اللحظة لم يستطع التحكم في مشاعره وقام بالاقتراب منها وباحتضانها ودار بها دورتين ثم أنزلها وهمس في أذنها "بحبك يا أحلى وأرق وأطعم بنوته في الدنيا دي كلها"..

لم تجبه ولكنها كانت مزهولة غير مصدقة أنه فعل هذا وقام باحتضانها.. لم تجب.. لم تتحرك.. لم ترد .

-بحبك يا مريم

-إيه اللي حصل دلوقتي دا يا مالك !؟

-ماهو أنا لو كنت قولتلك أني عايز أحضنك مستحيل كنتي توافقي وانتي وحشتيني أوي .

-هضربك.. هقتلك.. بتاخدني على خوانة وبتضحك عليا.. ماشي يا مالك مش هعديهالك .

ربت على يدها بعد أن سحبها ووضعها بين راحتيه ثم قال:

-ليه بس أنا عملت حاجة.. كنت محتاج أحضنك.. وحشتيني.. أجرمت .

سكتت مريم قليلًا ربما لتهدئ من اضطرابها ثم نظرت لمالك نظرة جعلت قلبه يدق مثل الطبول الإفريقية ثم قالت:

-أقولك على سر ؟

-قولي يا ماما.

دائمًا يقع كلامه على قلبها كحبَّات المطر.. استقبلتها بحنان ثم قالت:
-أنا كنت محتاجة الحضن دا أكتر منك.. إنت مش عارف يعني إيه بحبك.. ولا عارف يعني إيه بحس بالأمان وانا معاك.. أنا بقيت بسمع كلامك أكتر ما بسمع كلام ماما.

مسك يدها وتحركا نحو المطعم قائلًا:

-طب احنا هنفضل واقفين كده في الشارع واللي رايح واللي جاي بيبص علينا.. مش يلا بينا بقى .

سارت بجانبه وتركت يدها تستريح في كف يده، كان سعيدًا لدرجة أنه لم يشعر أنهما قد تجاوزا المطعم الذي يذهبان إليه دائمًا .

-بسبس.. انت ياعم.. المطعم أهو.

-إيه دا بجد.. مخدتش بالي .

-أنا أخدت يا حبيبي .

دخلا المطعم واختارا نفس المائدة التي يجلسان عليها كل مرة حتى إن مريم اقترحت أنه يجب على أصحاب المطعم أن يكتبوا اسميهما عليها.. بدأت كلامها:

- مالك. .

-أيوة.

-جعانة .

ليرد قائلًا:

-هتنضفي المطبخ بس ولا المحل كله؟

-نعم؟!

-سمعتيني.. ها قولي عشان نشوف هناكل إيه .

-مش أنت هتنضَّف معايا؟؟

-طبعا يا حبيبتي.. هناكل سوا وننضف سوا إن شاء الله .

-هاكل بيتزا كبيرة لوحدي وأنت؟

-لا يا حبيبتي ماهي الكبيرة دي يدوب هنضف المحل كله بتمنها احنا الاتنين.

-قشطة يبقى هاتلي كمان طبق بطاطس وكاتشب وبيبسي دايت .

ضحك عاليًا ثم قال:

-لا يا راااااجل.. دايت .

-أه يا حبيبي.. عشان متخنش .

-أه صح بصوت تمتمة بسيط)بيتزا وبطاطس (ومتخنش .

-بتقول حاجة؟

-ولا حاجة يا حبيبتي ألف هنا وشفا.

-وأنت هتاكل إيه؟!

-هاكل سندوتشات .

-لأ كل زيي بيتزا.. مش كل مرة نتخانق بسبب الموضوع دا احنا جايين سوا عشان ناكل سوا .

-حاضر يا ماما..

-يلا بقى نادي على الجرسون واطلبلنا الأكل.. جعانة ياعم .

-حاضر يا ماما .

طلب ما يحتاجانه.. ثم بدأ بالنظر في عينيها.. كم هي جميلة.. أو كم هو يراها جميلة.. لم يرَ غيرها .

-تعرفي أنك أحلى بنت موجودة في المكان .

-عارفة أصلًا وبعدين بطل تبص على البنات.

-مبصتش يا حبيبتي.. من غير ما أبص إنتي أحلى بنوتة .

-وأنت بتاع بنات بقى.

-الله يسامحك.. ربنا يعلم أنا مخلصلك ازاي .

-عارفة.. ومش بمزاجك على فكرة .

-بمزاجي وغصب عني كمان وبعدين في حد يبقى في إيده الأصل ويبص للتقليد.. يبقى في إيده القمر ويبص للنجوم.. غرق في عينيها أنه الآن في عالم آخر.

-مالك.. ماااالك.. يا مااااااااااااااااااالك .

اصحى يا ابني أنا نازلة رايحة الكلية!!

* * *

صباح يوم جديد من الفصل الدراسي الثاني.. وبداية الربيع شمس دافئة لطيفة ليست بحارقة.. نسمات هواء تمر بين المارة تداعب مشاعرهم.. تنزل حور من منزل عمتها لتبدأ يوم جديد.. يوم روتيني ممل.. من المنزل حتى الجامعة وينقضي اليوم بين المحاضرات والمكتبة.. لم تكن تقرأ غير المواد التي تدرسها، ولكن من بعد ما حدث لها في القطار أصبحت شغوفة بالقراءة.. فلماذا يا ترى هذا الاهتمام المفاجئ بالقراءة عمومًا وبالروايات خاصة.. إنه الشاب الذي شغل بالها من يوم أن رآته ولم تستطع أن تتعرف عليه.. ماذا ستفعل.. هل تستسلم لهذا المتغطرس الذي لم يعطِ لها بالًا ولم يقدم لها أي فرصة كي يتقابلا ثانية.. جالسة هي في إحدى المحاضرات وغير منتبهة لما يقول الدكتور.. بجوارها أصدقاؤها يلاحظون ما هي عليه من شرود وعدم تركيز في انتظار إنهاء المحاضرة بفارغ الصبر ليتم عقد جلسة اعتراف لها حتى تخبرهم ما بها.. انتهت المحاضرة وقامت بالتوجه للباب الرئيسي للمدرج كي تنصرف لمكتبة الجامعة، تجلس فيها حتى تنتهي سمر ابنة عمتها من محاضراتها، ولكن استوقفها أصدقاؤها مازحين:

-الجميل مسهِّم ليه بقى.. وقعت ولا الهوا رماك .

لترد نافية:

-أنا !!أبدًا والله.. مفيش حاجة .

لم تنجح في إخفاء ما بداخلها نظر أصدقاؤها لبعضهم ثم لها.. كانت قلِقة من الكلام مع أي شخصٍ آخر؛ خائفة مما يمكن أن ينسجوه في خيالهم عنها إذا هي تكلمت.. فهي حتى لم تتحدث معهم في أي أمر شخصي ولا حتى الأمور المتعلقة بالفتيات.. فكيف تحكي لهم أنها تريد أن تتعرف على شاب وهي التي رفضت زميل فلانة وأخا الأخرى.. ياترى ماذا سيقولون عنها وكيف سيتصرفون معها.. ولكنهم لا يريدون تركِها بمفردها ومصممون أن تشاركهم همها وما يجول بخاطرها.. حدثت نفسها قائلة:

ياربي أعمل إيه دلوقتي في البنات دول.. ولو متكلمتش هيفتكروا أني معجبة بحد من الجامعة.. وفجأة تنطق صديقتها بنبرة جنونية:

-يلا بس نجيب حاجة نشربها من الكافيتيريا عشان حور تحكيلنا في إيه .
أجابت باستسلام لتنهي هذه المحكمة:

-أمري لله .

ذهبوا جميعًا للكافيتيريا وطلب كل منهم ما يريد أن يشربه من نسكافية أو بيبسي.. جلسوا جميعًا في ركن بعيد ثم قامت حور بسرد الحكاية بالتفصيل وأضافت أنها منذ هذه الحادثة لم تستطع أن تبعده بعيدًا عن تفكيرها وخيالاتها.. إنها طوال الفترة المنقضية ليس لها تفكير إلا فيه وأنها بحثت عنه على شبكة التواصل "الفيس بوك "ولكن دون جدوى..

لأنها لا تعرف عنه أي شيء لا اسم ولا أي شيء يدل عنه.. ولكن كانت ترضي نفسها وتقنعها بهذا البحث.. كان أصدقاؤها غير مصدقين لما يسمعوه.. من التي تجلس أمامهم وتحكي لهم أنها تريد فعل هذا.. أهي التي رفضت الارتباط بأكثر من شاب لا ترفضهم أي فتاة.. ومن ياترى هذا الشاب الذي قام بفك طلاسمها.. أخذوا يسألونها.. عن اسمه وشكله ووصفه وطوله وعرضه.. فأجابتهم .

ذُهِلَ جميع أصدقائها لوجد شاب يستطيع أن يحرك مشاعر حور هذه الفتاة المنغلقة على نفسها منذ عرفوها.. فبدأت واحدة منهن في الكلام:
-متتكسفيش يا حور.. الحب ضيف مفاجئ بيخبط علينا في أي وقت وتقريبًا مبنكونش مستنينه.. وهو خبَّط على بابك وانتي كان لازم تمسكي فيه متخليهوش يمشي.. إنتي بنت زينا واحنا فاهمين إحساسك.. إنتي طيبة أوي وتستاهلي كل خير .

شعرت بالخجل واستأذنتهم وانصرفت.. ذهبت للمكتبة لتكمل نفس الرواية التي كان يقرأها.. تتمنى من الله أن تلقاه حتى تخبره أنها عرفت السر الذي جعله يقرأ هذه الرواية تحديدًا، رن هاتفها لتجد اسم سمر على الشاشة فضغطت زر الإجابة ثم قالت:

-أيوة يا سمر جاية اهو.

غادرت مسرعة حتى لا تتأخر على سمر.. تبادل الاثنان الحديث سويًّا عن الكلام الذي قالته حور لأصدقائها فحذَّرتها سمر منهم.. ذهبتا للمنزل مسرعتين ومرَّ اليوم سريعًا وذهبتا للفراش.. سمر على سرير تحادث عبد الرحمن عبرالهاتف المحمول.. وحور في ملكوت آخر.. مسافرة خارج

نطاق الكوكب.. تشعر أن أفكارها قد ذهبت للمريخ.. تتكلم سمر في الهاتف ولكنها تستغرب لحور.. كيف لها وهي لا تعلم شيئًا عنه ويفعل بها كل هذا.. من هذا.. هل ستظل هكذا كثيرًا.. لابد أن تضع حدًا لهذا الوضع المريب الذي أوقعت نفسها فيه.. ولكن كيف لهذا الغريب أن يفتك بها هكذا.. انتهت من مكالمتها ولم تخبر حبيبها بشيء بينما حور نامت وهي تفكر وترى صورته بوضوح في عقلها .

استيقظتا في اليوم التالي.. تمر الأيام تشبه بعضها البعض تختلف فقط في مواعيد المحاضرات وعناوينها.. تذكرت أن عليها إعداد بحث في الكلية فقامت باستعارة الكتب اللازمة له من المكتبة حتى تستطيع السفر بها لأنها تذهب لزيارة والدتها كل أسبوع .

* * *

-إمشي يا هاجر من وشي .

هذه كانت أول كلمات ينطقها عندما أيقظته هاجر من نومه ، كانت بجدية تخلوا من أي مرح مما جعلها تنصرف حزينة.. محدثًا نفسه:

-صحتيني ليه بس.. مش عارفة كنتي تسيبيني أنام العمر كله عشان أعيش الحلم اللي معرفتش أحققه في حياتي.. مكنتش أعرف إنها وحشاني للدرجادي .

قام من فراشه، توضأ وصلى كعادته.. وجد الافطار جاهزًا ووالدته في انتظاره ليتناولا الطعام سويًا.. تلاحظ حزنه المستمر الذي تعودت عليه منذ فترة، ولكنه اليوم واضح بين جفونه فبدأت بالكلام:

-مالك يا ابني فيك إيه بس؟

حاول أن يرسم تلك البسمة التي يحترف إلقاءها على ملامحه، ولكن والدته تعلم ما بداخله.. فقسمت الرغيف وأعطته نصفًا وأخذت الآخر ثم قالت:

-ما تقولّي يا ابني مالك؟

-مفيش حاجة يا أمي.. في بس شوية ضغط في الهيئة عايزين تقارير كتير الاسبوع دا وكمان في حاجات ناقصاني في المحل.. ادعيلي.

قالت بعد أن ربتت على يده:

-هتُفرَج يا ابني إن شاء الله.. مفيش أحن من ربنا على عباده.. أنت بس ادعيه وهو مش هيخذلك أبدًا .

أمسك يدها وقبّلها ثم غادر لعمله وفي يده كتابه الذي لم يفارقه قَط.. أصبحت الكتب هي ملاذه الوحيد.. هي السبيل الوحيد للهروب من الواقع والهروب من الوحدة في عوالم وحكاياتها.. يستطيع أن يشعر بما يشعر كل بطل لكل رواية.. انتهى من يومه الحكومي ثم وصل إلى المحل.. كَمًّا كبير من الكتب قرأ.. وكَمًّا أكبر من الروايات عاش.. جالس بين زجاجات العطور قام بالاتصال بصديقه ليفضفض له القليل عما يحتويه قلبه وما يعرفه مصطفى جيدًا.. يعلم صديقه أن مالك شاب جيد، كل أهل منطقته يحبونه لأخلاقه وسيرته الحسنة بينهم.. رنَّ هاتفه ليجد أن المتصل هاجر.. رد عليها:

-أيوة يا هاجر .

شعرت بحزن في نبرة صوته لكنها أرادت مصالحته قائلة:

-متجيش على الغدا أنا هجيبهولك وناكل عندك .

-طب اعملي حساب مصطفى.. عشان أنا كلمته وهو جاي في الطريق.
وافقت على طلبه.. وقام باستعجال مصطفى هاتفيًا وأخبره أنهما سيأكلان سويًّا من يد هاجر.. تبادلا النكات وأغلق الخط مستعجلًا إياه..
بعد أقل من ساعة دخل عليه مصطفى مبتسمًا له:

-فين الأكل ياعم.. وأنا اللي جوَّعت نفسي عشان أكل .

ردَّ مالك الابتسامة:

-لازم نستنى هاجر هي صاحبة القرار في الفكرة دي وفي الأكل كمان.
تبادلا الحديث عن العمل في القطاع العام والخاص وميزة كل منهما، ولكن فجأة يقف مصطفى قائلًا:

-والله أنت برنس ياض يا درش.. أنت مكانك مش هنا .

أمسك مالك بذراعه وأجلسه مكانه مرة أخرى قبل أن تتسبب حركاته بكسر بعض الزجاجات مؤكدا أن مكانه بالفعل ليس هنا وإنما مستشفى المجانين لكن مصطفى صمم على الكلام مداعبًا مالك.. أنه يستطيع أن يكتب رواية مستغلا حكايته في كتابتها.. نظر مالك له في استياء وحزن على الحالة التي وصل إليها.. وصل به الحال أن مصطفى يريد منه أن يسطر حكايته ووجعه وآلامه في رواية تتدوالها الأيادي.. شعر مصطفى بما خطأه وجلس بجواره مقدِّمًا اعتذاره:

-والله ما قصدي يا مالك.. أنت حبيبي وأخويا وعايزك تفك.. شايف أن دي حاجة تخرَّج فيها طاقة جواك.. هتهدى وهتبقى كويس بعدها.
قاطع كلامهما دخول هاجر بالطعام عليهما مبتسمة كعادتها بوجها المشرق.. وضعت ما في حقيبتها على مفرش أحضرته معها.. رصت الأطباق وقامت هاجر بدعوتهما للغداء.. جلسوا صامتين خاصة مالك شاحب الوجه مسافر لمكان آخر وهاجر حزينة عليه ياترى فيما يفكر.. سألت مصطفى:
-مالك ماله يا مصطفى؟

فأجاب مالك بأنه بخير.. ولكنها كررت السؤال فأجابها مصطفى وبدأ يحكي لها ما قاله لأخيها وأن هذا هو السبب في ضيقه وحزنه.. ولكنها لم تغضب من مصطفى ولم تلُمه بل ارتسمت على وجهها ابتسامة جميلة مشرِقة وهي تنظر لأخيها وأخذت في شرح وجهة نظر غريبة لأخيها لم يكن يتوقعها وتفاجأ بها مصطفى أيضًا:

-أنا شايفة أن مصطفى عنده حق.. مش عشان أنت مثلا بتعرف تكتب أو حاجة زي كدةبس عشان أنت فضلت ساكت وكاتم في نفسك وقت كبير.. أكيد هترتاح لما تكتب حتى لو منشرتهاش يبقى كتبت اللي جواك وارتحت بدل ما أنت مخبي الكلام جوًّا قلبك كده.

نظر إليها في تعجب غير مصدق لما تقول، بادرته هي بابتسامتها مرة أخرى، ولكنه أسكتهما بنبرة حادة.. وغادر مائدة الطعام مستاءً.

لحقا به مسرعين موضحين وجهة نظرهما ولكن دون جدوى.. سكوت تام بين الأخوين وصديقهما.. شعور بالأسى من مصطفى لأنه فتح موضوعًا

كهذا.. ولكن علقت الفكرة برأس هاجر.. مرَّ اليوم سريعًا وغادر مصطفى وذهب مالك وأخته للبيت وفي الطريق وحتى في البيت أثناء وجبة العشاء لا حديث بينهما سوى عن هذا الموضوع الذي حتمًا سينجح إن بدأ هو في سردها لا من وجهة نظره بل كيف كان يريدها أن تنتهي.. وبعد إقناع استمر يومين قرر مالك أن يرضى بالأمر الواقع وليتوقف إلحاح هاجر ولأنه اقتنع نسبيًا بوجهة نظرها، ولكنه قرر أنه سوف يكتبها كما هي واقعية لا كيفما كان يريد بل كما انتهت.. بدأ مالك في سرد الأحداث، ولكنه ما إن قرأ منها فصلًا حتى شعر أنها ليست رواية ولن تجذب أحدًا، إنها لا تليق بأن تكون قصة أطفال؛ بسبب ما وجد بها من أخطاء وعدم استطاعته من كتابة الديباجة الخاصة بالرواية .

جلس مع أخته وأخبرها بهذا:

-أعمل إيه يا فالحة.. أخوكي حمار في الكتابة.. أنا أقرأ أه.. انما أكتب مظلنش.

فكرت أخته أن يقوم بزيارة المكتبة العامة وقصر الثقافة واستعارة كتب ليتعلم منها كيفية كتابة الرواية وأن يبحث على الإنترنت وأن يبذل قصارى جهده في أن تصبح رواية ناجحة أو على الأقل رواية غير مرفوضة من قِبَل من سيقرأها .

كانت هاجر تعد المفاجأة لأخيها منذ أن أخذت منه النقود.. فهو لم يعد يهتم بعيد ميلاده على الإطلاق ولا أي مناسبة حتى.. اتصلت بمصطفى فأخبرها أنه متذكر واتفقا أن يفاجآه سويًا.. اشترت بما معها التورتة والتزامات عيد الميلاد وأخبرت مصطفى أن يصطحبه في ذلك اليوم بعد انتهاء عمله للمنزل.. كان هذا الاتفاق سريًّا بين مصطفى وهاجر ووالدته .

اتصل مالك بمصطفى وأخبره أنه يريده أن يفتح بدلًا منه المحل غدًا لأنه سيذهب إلى المكتبة مارًا بقصر الثقافة لتصفح بعض الكتب التي وجد أسماءها على شبكة الإنترنت ليتعلم كيف يكتب رواية صحيحة.. تبادلا الحديث عن بعض النقاط المهمة في الرواية وهي كيفية اللقاء.. وكيفية الفراق.. ولكن أجَّل مالك هذه المناقشة لحين آخر؛ لأنه لا يستطيع التفكير في أي سيناريو للرواية قبل أن يقرأ ويتعلم كيف يكتب رواية.. مرَّ شريط حكاية مالك أمام عينيه لثوانٍ ثم قال لنفسه.. لا أريدها أن تنتهي ولكنها ستنتهي .

* * *

أيقظت هاجر أخاها ليذهب لعمله كي لا يتأخر ويُخصَم من راتبه جزاءً على تأخره.. أخبرها على الفور أنه سيذهب اليوم للمكتبة العامة وقصر الثقافة بحثًا عن الكتب التي كتب أسماءها من على شبكة الإنترنت.. ظهر على ملامحها الفرحة جراء ما سمعته من أخيها.. نزل بعد تناول الإفطار مع والدته وأخته وذهب لقصر الثقافة.. دخل من البوابة الرئيسية ليجد موظف الأمن لا يمت للأمن بصِلة فهو هزيل قصير تستطيع أن تلقيه أرضًا إن سلمت عليه بعنف.. قابله بابتسامة وسأله عن مكان المكتبة:

-كنت عايز استعير كتب من المكتبة.. ممكن تقولي هي فين ؟

ابتسم له الموظف ثم بدأ بوصف المكان له وأنه في الدور الثالث توجد المكتبة الخاصة بقصر الثقافة وأن بها مئات الكتب والمجلدات، ولكنه لكي يدخل لابد أن يمر على الأستاذة "صفاء "أمينة المكتبة.. صعد مترددًا

يفكر في الموضوع ككل وهل هو قادر على كتابة حكايته كيفما مرَّ بها أم أنه لن يجرؤ على ذلك، حتى وصل الى مكتب أمينة المكتبة.. امرأة بشوش في أوائل الأربعينيات زينتها واضحة وعطرها يملأ المكان فبدأ قائلًا:
-صباح الخير يا فندم .

ردت مبتسمة:

-صباح النور.. اتفضل.. أقدر أساعدك بإيه؟

تعجَّب مالك لما قاله موظف الأمن أن أمينة المكتبة امراة شاحبة لا تطيق الزوَّار حتى وإن كانوا قليلين لأننا الآن في مجتمع لا يهوى ولا يفضِّل القراءة.. ولكنه رد الابتسامة بالابتسامة.. انتبه من شروده ثم قال:
-حضرتك أنا كنت عايز مؤلفات عن كيفية كتابة روايات وسِيَر ذاتية لكتاب توضحلي أبدأ ازاي ومنين .

أجابته برد صريح والبسمة لم تفارق وجهها:

-الكتب والمجلدات دي هتاخد وقت عشان ألاقيهملك وصعب أوي في يوم واحد.. وكمان عشان معطلكش معايا .

أخبرها أنه بإمكانه مساعدتها في البحث، ولكنها فضَّلت البحث منفردة عن الكتب ، وردت بنفس الابتسامة:

-أنت ممكن تيجي بكرة تلاقي كل اللي أنت طلبته.

استغرب رفضها مساعدته وقرر الذهاب ليقضي يومه كالمعتاد مع وعد بالعودة غدا ، ولكنه أصبح يقرأ أكثر.. قرأ مالك ذات يوم على لسان أحد الكُتَّاب

إن أردت أن تكتب جيدًا فلابد أن تقرأ كثيرًا .

ذهب لعمله يجلس وسط زجاجات العطر التي اختار منهن واحدة كي يهديها لأمينة المكتبة في الزيارة القادمة للمكتبة.. ومرَّ اليوم مملًا رتيبًا لا تشوبه أي أحداث مختلفة، إن باقي الأيام هي نفسها الذكريات التي تجوب خاطره مع التفكير الضئيل في المستقبل المظلم.. مرَّ عليه مصطفى في آخر اليوم ليفاجأ به مالك:

-أنت مش لسه مروَّح يابني.. جاي تاني ليه.. وإيه اللي معاك دا؟

ضحك مصطفى كعادته:

-أمي طردتني من البيت فقُلت أجي اتعشى عندك وجيبتلها هدية عشان تخليني أبات في البيت.. ثم ربت على كتف صديقة وأكمل: يلا عشان نروَّح .

أغلقا المحل سويًا وذهبا لمنزل مالك.. ضرب الجرس ولكن لم يجِبه أحد.. استنتج أن والدته تسلم بعض منتجاتها لزبائنها وأخذت هاجر معها.. أخرج المفتاح وفتح الباب وبعد أن ضغط على مفتاح الإنارة ليجد أخته ووالدته بجوار الطاولة التي تحمل فوقها تورتة بها شمعة واحدة ويجوارها كاسات فارغة وزجاجة بيبسي كبيرة.. ابتسم مالك ابتسامة صافية ثم نظر لمصطفى الذي فهم سريعًا أنه مشترك معهم في هذه المفاجأة.. ثم أخذه تحت زراعه وقبَّل رأسه قائلًا:

-كل سنة وأنت طيب يابو المماليك .

لم تنتظر هاجر أن يصل مالك للطاولة.. هرولت تجاهه كعادتها.. فهي متعلقة بأخيها أشد التعلق.. تشعر أنهما حبيبان أو صديقان وليسا أخوين.. ألقت نفسها بين أحضانه ثم رفعت عينها له:

-كل سنة وانت طيب يا حبيبي .

لم ينتظر أكثر من ذلك ثم تقدَّم نحو والدته وجثا على ركبتيه وقبَّل يدها.. فربتت هي على رأسه وهي تداعب شعره كيفما كانت تفعل وهو صغير.. ثم قالت:

-كل سنة وانت طيب يابني .

احتفلوا بعيد ميلاده وانقضت الليلة بينهم جميعًا وبعد أن انتهت غادر مصطفى بعد أن وصَّاه أنه من الواجب عليه أن يبدأ عامًا جديدًا دون أي ذكريات.. فابتسم له مالك وهز رأسه متفهما.

صباح اليوم التالي نزل كلٌّ من مالك وحور من منازلهما وكلٌّ منهم متجه للمكان الذي يريد أن يذهب إليه.. هو ذاهب للعمل ليمضي حضور ويستأذن ويذهب لقصر الثقافة ثانية كي يحضر ما طلبه أمس من أمينة المكتبة، أما هي برفقة بنت خالتها إلى الجامعة.. استاذن مالك من مديره في العمل أنه يريد أن يذهب لقضاء بعض المشاوير المهمة لديه وبالفعل أذن له المدير لأنه من الموظفين المحترمين الملتزمين وغادر والبسمة ترتسم على شفتيه بعد أن علم من المدير أن لديه فتاة في مقتبل العمر وشعرَ من كلامه أنه يريد أن يخطبها له، ولكنه كالعادة لم يصدمه برد محرج ففضل الابتسام وغادر.. وصل مالك المكتبة بعد أن اتفق مع مصطفى أن يذهب ويباشر العمل في المحل بدلًا منه لأنه لم يفعل

بالأمس نظرًا للتغيرات الطارئة.. وصل مالك للمكتبة فقابلته أمينة المكتبة بنفس الابتسامة فبادلها إياها.. أجلسته وأخبرته أنها وجدت له كل ما يريد، ولكنها لا تستطيع أن تعيره هذه الكتب إلا بعد أن يشترك في المكتبة ويصبح من أعضاء القصر الثقافي والمكتبة:

-صعب أنك تستعير الكتب دي أو حتى تقرأ منهم هنا غير لما تكون عضو في المكتبة .

فسألها عن كيفية الاشتراك فأخبرته ما هو مطلوب.. سحب استمارة عضوية فطلبوا منه أربع صور وصورة بطاقة فهو لا يملك أي صور فرجح أن ينهي كل هذه الأعمال اليوم بما أن مصطفى يباشر الأعمال في المحل بدلًا منه ذهب ليحضر صورًا من المنزل ويعود سريعًا لينجز أمر الاشتراك ويكون في مقدوره الحصول على الكتب .

عاد مالك لقصر الثقافة، ولكنه شعر باضطراب في الحركة ووجد وجوهًا لم يكن يراها في الصباح، فسأل موظف الأمن فأخبره أنها رحلة لإحدى المدارس الثانوية وهذا الهرج والمرج من قِبَل الطلبة وأخبره أن أمينة المكتبة مشغولة معهم ويمكنه المجيء في الغد، ولكنه طرد هذه الفكرة من رأسه وصمم على إنهاء الأوراق المطلوبة من الإداريين وفي حين الانتهاء يذهب للأمينة يأخذ منها الكتب.. وبدأ رحلته بين الموظفين لختم الأوراق المطلوبة وبالفعل مرت ساعة ونصف بين الموظفين والأوراق والأختام، حاول أحد الموظفين أن يحضر في الغد ليأخذ اشتراكه، ولكنه رفض وصمم أن ينهي كل شيء اليوم.. وأصبح عضوًا في المكتبة وأصبح معه الكارنيه الخاص بالمكتبة يستطيع استعارة أي كتاب يريد في أي

وقت .صعد مالك السلالم ودخل المكتبة المليئة بالطلبة بحثًا عن أمينة المكتبة ليأخذ كتبه ويغادر وبعد أن وجدها حدثها قائلًا:

-أنا خلصت الورق كله النهاردة عشان أخد الكتب النهاردة.. ممكن تديني الكتب عشان أمشي.. ومعلش تعبتك معايا؟!

أخبرته أن الطلبة ستغادر في غضون نصف ساعة وسوف تعطية ما يريد لكن بعد رحليهم.. أخبرها أنه سينتظرها في المكتب وفي طريقه للمكتب وجد أن الأفضلية للتجول في المكتبة وسط الكتب والطلبة.

شعر مالك بارتياح تجاه الكتب وبدأ التصفح في طياتهم.. بدأ يقرأ ويدوِّن، ينتقى من الكلمات ما يجدها مناسبة وشيقة له كقارئ .

مرت الأيام رتيبة تشبه بعضها وأصبحت حور لا حديث لها مع بنت عمتها سوى عن الروايات والشخصية الشابة التي لم تجد لها مثيلًا حتى الآن ،، الفصل الدراسي على وشك الانتهاء ومالك مستغرق في العمل، يوفر أكبر قدر ممكن من المال ليستطيع أن يضيف نشاط للمحل .بدأ في شراء الروايات من سور الأزبكية وبيعها في المحل بجانب العطور.. بدأ في التخطيط ليذهب هو وأخته وأمه لزيارة بيت الله الحرام.. ولكنه منهمك في أكثر من نشاط ناحية الوظيفة الحكومية والمحل من ناحية أخرى والرواية من اتجاه آخر .

قامت حور بتجهيز أغراضها لتسافر للإسماعيلية لزيارة والدتها، وبعد أن وصلت، اكتشفت وهي تراجع في الكتب التي استعارتها أنه ينقصها أشياء كثيرة وهي لن تعود للقاهرة إلا على الامتحانات فقررت الذهاب لقصر الثقافة لاستعارة الكتب المطلوبة .

انشغل مالك في يومه المتكرر يقرأ ويدوِّن يعمل ويوفر المال يذهب العمل ليقرأ كان يوفر له العمل في هيئة حكومية وقتًا كافيًا للقراءة كما أنه يعمل لحسابه ليس عند أحد في المحل وهذا جعل من وقته ثمنًا قليلًا لهدف كبير .

قررت الذهاب لقصر الثقافة لتفاجأ بمكتبة كبيرة تميز المكان وأرادت أن تذهب مرة أخرى لرؤية الكتب والروايات خصوصًا أنها أصبحت تحب القراءة وتحب أن تعيش معه في نفس الشيء الذي يحبه.. كان على الأرجح شغف بشيء يفعله.. طلبت من الأمينة أسماء الكتب التي تحتاجها في البحث فأخبرتها أمينة المكتبة أن تواجدها في المكتبة لابد أن يكون موثقًا باشتراك في المكتبة فقامت بالمطلوب وأصبحت هي الأخرى من أعضاء القصر الثقافي وأخذت ما تحتاجه من الكتب.. كلما شعرت بالملل وأنها تريد أن تجدد نشاطها ذهبت للتجوُّل وسط الكتب.. وفي الناحية الأخرى مالك يقرأ ويدوِّن.. أرادت أن تعيد الكتب التي استعارتها لأنها ستسافر للقاهرة بسبب الامتحانات.. في الجهة الأخرى مالك يرتب أموره ليعيد الكتب التي استعارها من المكتبة .

صباح يوم جديد كل منهما متجه للمكتبة ليعيدان ما لديهما.. وصل مالك قبل وصولها بنصف ساعة من دخولها الباب الرئيسي للقصر.. بينما هي تتمشى على ضفاف النيل لتصل للمكان المنشود.. صعد مالك ليرد ما لديه من كتب .أنهى كلامه مع مديرة المكتبة قائلًا:

-أنا متشكر جدًا لحضرتك.. مش عارف أقولك إيه.. إنتي ساعدتيني في حاجة مهمة جدًا .

ابتسمت له ثم قالت:

-دا شغلي ولو غيرك كان احتاج نفس الطلب كنت عملت نفس اللي عملته.
شكرها مرة أخيرة ورحلَ .

دخلت حور الباب الرئيسي متجهة لمبنى المكتبة، في حين بدأ مالك في النزول على سلالم المبنى الرئيسي و حور صاعدة على أول سلمة كعادته ناظرًا أمامه للأرض.. وهي مشرقة تنظر أمامها لأعلى لتصعد السلم.. صعدت هي ما يقارب العشر درجات وترفع عينيها لتراه ينزل السلم، لم تصدق عينيها هو لم يرَها ولكنها تراه تتذكره.. هو ذلك الشاب الذي خطفها من الدنيا بأسرها بهدوئه ولا مبالاته سرعان ما تحركت كي لا تضيع هذه الفرصة أيضًا.. نبهته لوجودها:

-لو سمحت !!

التفت لها ولم يصدق ما رآه.. إنها هي الفتاة التي قابلها في القطار.. هي التي شغلت باله وتفكيره لأيام ويتذكرها من وقتٍ لآخر.. وإن كان لا يريد أن يتذكرها، ولكنها كانت تقتحم ذاكرته دومًا دون استئذان وهاهي الآن تقتحم حياته ثانية دون ملل.. ماذا يفعل ياترى.. ولكنها اتجهت إليه قائلة:
-ازي حضرتك عامل إيه.. فاكرني؟

أجابها بابتسامته المعهودة:

-الحمد لله يافندم.. كويس.. طبعًا فاكر حضرتك.. إنتي عاملة إيه؟
لم تكن تصدق نفسها أنها رآته ثانية فاردفت قائلة:

-أنا الحمد لله كويسة.. أنت بتعمل إيه هنا ؟

فأجابها بأنه عضو في قصر الثقافة.. فخرجت منها مفاجِئة وتلقائية:
-وأنا كمان..

ابتسم هو لما رآه في عينيها ثم قال:

-ربنا يوفقك المكتبة هنا مفيدة أوي فعلًا .

شعرت لثانية بخجل من تصرفها، ولكنها لا تستطيع أن تضيع هذه الفرصة.. ولكنها أيضًا لم ترد أن تحرج نفسها معه ثانية فسألته قائلة:

-أنت بتيجي المكتبة كتير؟

فأجابها بأنه حصل على ما أراد وفرصة عودته للمكتبة تكاد تكون معدومة بعد ذلك .

لم تستطع تركه يذهب دون أن تحاول أن تتواصل معه ثانية فأخبرته أنها تريد أن تقرأ رواية وتريد مساعدته في اختيار رواية ممتعة لها فهزَّ رأسه موافقًا .
وبالفعل صعد معها ثانية ووقف بجوارها أمام أرفف المكتبة وتنظر هي له لتجده ينظر للكتب في تركيز تام.. اختار لها ما يناسبها من الروايات التي قرأها قبل ذلك.. طلبت منه أن تعرف مكان المحل الذي يعمل فيه فلم يجد مفرًّا من أن يعطيها الكارت الخاص بالمحل ويوجد عليه العنوان ورقم التليفون.. أخذته منه بلهفة طفولية وشكرته على مساعدته ثم قالت:
-أنا ينفع اتصل بيك لو حاجة وقفت قدامي في الرواية؟

نظر لها نظرة مريبة ليطلعها أنه يفهم ما يدور بخاطرها، بالإضافة إلى نظرة الأسى؛ لأنه لا يريد أن يصيبها بالألم تجاه ما تنويه، ولكن هو القدر الذي جمعهما ثانية، لكنه أردف قائلًا:

-طبعا مفيش مشكلة.. قالها وابتسم ثم أخذ كل منهما طريقه.فكرت أن تعود وتراقبه وتعرف عنوانه بالضبط، ولكنها تذكرت أنها حصلت على العنوان بالفعل في الكارت .غادرت المكتبة لا يوجد أمامها سوى وجهه وصورته.. وصلت البيت ودخلت غرفتها وأخرجت الكارت واحتضنته ثم نظرت لاسمه.. مالك هذا الاسم سيكون له تأثير على مجرى حياتها.. هي تشعر بذلك منذ فترة.. أخرجت هاتفها لتتصل به، ولكنها ماذا ستقول له.. محدثة نفسها:

-عايزة أعرف كل حاجة عنه.. بس لازم أستنى.. لازم يكون لاتصالي سبب.. لازم أكون هسأل عن حاجة في الرواية .

قررت أن تنتظر بعد أن تجتاز امتحاناتها وتبدأ في قراءتها، ولكنها لم تستطع الانتظار.. أخذت الكتاب في أحضانها وبدأت القراءة وأخذت تدوِّن ما يقف أمامها ليكون عندها أسئلة كثيرة تحدثه فيها عندما تتصل به.. بدأت توفق بين وقت المذاكرة والقراء.. حاولت أن تتصل به، ولكنها غلبت نفسها هذه المرة وانتظرت يومين كاملين حتى تستطيع أن تحدثه بقلب جريء في صميم الرواية.. لم يخبر مالك صديقه أنه رآها ثانية لأنه سوف يقع تحت ضغط منه أن يكلمها ويستجيب معها في طلباتها

في خلال يومين، استطاع مالك أن ينتهي من قراءة آخر رواية لديه قبل أن يبدأ في الكتابة وخصص لنفسه ساعة يوميًا يكتب فيها في الرواية

الخاصة به.. انتهى من عمله في اليوم التالي وذهب لبيته لتناوُل العشاء مع هاجر وأمه.. وطلب من أخته أن تحضر له كوبًا من الشاي وجلس على السرير ليبدأ في كتابة الرواية .

سافرت حور لتقضي أيام الامتحانات ثم تعود مرة أخرى للإسماعيلية وبعد وصولها وقبل أن تنام في تمام العاشرة مساءً، تركت سمر في غرفتها وخرجت تكلم مالك من الشرفة الصغيرة التي تميز غرفتها.. أمسكت حور هاتفها وفي يدها الورقة التي حضَّرتها لتكون المبرر لمحادثته.. أمسك قلمه وبدأ في الكتابة وإذا بهاتفه يرن.. لينظر لشاشة الهاتف ليجد رقمًا غريبًا.. فأجاب بنبرة صوت هادئة:

-السلام عليكم..

ارتبكت قليلًا، فهي تدري نتيجة تصرفاتها المتهورة منذ أن رآته أول مرة.. ولكنها لا تريد أن تخسره كما هو يظن أنه سيخسرها.. أجابت مضطربة:
- وعليكم السلام .

عرفها من طريقتها من صوت أنفاسها المتلاحقة.. لم يكن يريد أن يظهر لها اهتمامه أو أنه كان في انتظار هذه المكالمة فسألها عن هويتها فأجابت وتبادلا الحديث حول الرواية وسألته بعضًا من الأسئلة المنطقية، وفي آخر المحادثة شكرته قائلة:

-شكرًا يا مالك.. أنت فهِّمتني حاجات كانت واقفة قدامي من غير شرحك البسيط مكنتش هفهم باقي الرواية .

ردَّ عليها قائلًا:

-العفو.. في أي وقت أنا تحت أمرك .

شكرته على أسلوبه الراقي وتمنت منه أن يصبحا صديقين.. ومن خصائص هذه الصداقة أن يطمئن كل منهما على الآخر.. وافق هو وابتسم ابتسامة، أطرقت هي السمع لكي تردها له، ولكنها ضحكت بصوت ملائكي تخبره أنها تعرف قدر تطفُّلها على حياته .

انتهت المكالمة وعاد هو لرواية وعادت هي لسريرها.. احتضنت نفسها وبدأت تحدثها بصوت واضح:

-إيه اللي أنا بعمله دا.

دخلت هاجر عليه الغرفة تسأله:

- كنت بتكلم مين في التليفون.. مش عوايدك يعني .

زاغ بوجهه عنها وأجابها وهو ينظر في روايته:

-دي بنت اسمها حور قابلتها في المكتبة وعايزة نبقى أصحاب.. أشرق وجهها وتهللت سعيدة لما سمعته من أخيها فأخبرته أنها تريد أن يصبحا صديقين بالفعل كي تخرجه من الحالة التي يعيشها تريد أن تراه مشغولًا بلقائها ومحادثتها.. تريد أن تستعيد أخاها مرة أخرى.. نظر لها باستياء ممزوج بحنوٍ بالغ يكاد يشفق على أخته من قلقها عليه.. واستمر في التدشين لبداية الكتابة في روايته بينما حور تجادل نفسها وتارة تجد نفسها على صواب وتارة تجدها على خطأ.. استغرقت في نوم عميق حالمة أن يزورها في أحلامها، ونام هو منهكًا لبداية يوم جديد .

* * *

تلك القلوب التي تتعمَّد الهروب دائمًا من أي جديد..

ما هي إلا قلوب هشة اخترقتها أعيرة الماضي بحرفية .

(4)

استيقظت حور مبكرًا لتذهب لامتحانها وترسل لمالك رسالة ليستيقظ على صوت هذه الرسالة، فأمسك الهاتف فوجد مكتوبًا بها: "صباح الخير.. ادعيلي ."

ترك الهاتف بابتسامة خافتة بعد أن رد لها الرسالة: "صباح النور.. ربنا معاكي في امتحاناتك يارب."

بدأ يومه المعتاد والمتكرر وهو يريد أن يتفرغ لعمله ولروايته لا يريد أن يعطِّله أي شيء عن ذلك.. يريد أن يضيف نشاطًا للمحل ليزداد دخله ويتم ما يخطط له في أقرب وقت.. تمر الأيام تشبه بعضها البعض يتخللها بعض الاتصالات من صديقته الجديدة فهو يريد ألا تأخذ مكانة أكثر من صديقة لذا يضطر في بعض المرات ألا يجيبها، ولكنها مصممة على أن تكون صداقة حقيقية بدون أي اضطرابات تدور المكالمات حول ما يتضمنه عمله ورواياته التي قرأها ونصائحه لها بما أنها قارئة مبتدئة لم يعطِ لها مجالًا أن تسأله فيما يخصه وإن سألت كان يجيبها أنه لا يملك الطاقة للحديث في ذلك فتزيغ هي بنبرة صوت مضطربة وتقوم بتغيير الموضوع حتى تتلافى كل ما يشوب العلاقة أو بالمعنى الأدق الصداقة كي تنعم بمحادثته على الأقل كل يومين.. انتهت من امتحاناتها وعادت للإسماعيلية.. في خلال ما يقل عن شهرين تعرفت على أخته وعلى حياته كلها .

أرادت أن تزوره أكثر من مرة في مكان عملة لكنه رفض رفضًا باتًا.. مرت أيام والحياة رتيبة يحاول هو البدء في الرواية، ولكنها كانت أصعب مما يتخيل.. وكل يوم يمر تتعلق به أكثر فأكثر.. استطاع مالك توفير المال ليذهب بوالدته للعمرة ، ولكنه انتظر فترة من الزمن كي يحضر مفاجأة سارَّة للبيت بأكمله.. حصلت هاجر على تقدير الامتياز في دراستها وأراد مالك أن يكافئها:

-جبتلك امتياز زي مانت عايز.. قالتها هاجر لأخيها في حضرة والدتها . فنظر لها مبتسمًا ثم قبَّل رأسها وقال:

-مبروك يا حبيبتي .

-الله يبارك فيك.. إيدك على الحلاوة يلا.. فين هديتي .

بارك لها مرة أخرى وأخبرها أن هديتها محفوظة وستأخذها في وقتها . شكت هاجر أن يكون متعثرًا ماليًا فلم ترد أن تزيد الكلام في هذا الموضوع .
اتصلت حور بمالك لتخبره أنها ستسافر للقاهرة لتكمل أوراق نقلها من جامعة القاهرة للإسماعيلية.. أخبرها أيضًا أنه مسافر للقاهرة، ولكنه لم يخبرها بالسبب.. أخذ مالك الأوراق المطلوبة وسافر للقاهرة بصحبتها لينجز المفاجأة.. استقر ثلاثة أيام عند خالته ثم عاد يحمل معه الجوازات وتذاكر السفر.. عادت حور للإسماعيلية قبله بيوم لأنها لم تكن تعلم كم يوم ستنتظره ففضلت العودة كي لا تقلق عليها والدتها.. تعلم أن سبب انتقالها من القاهرة للإسماعيلية هو أن تكون بجانبه فهي استطاعت أن تكون بعيدة عن والدتها وبيتها ثلاث سنوات، ولكن الآن

يوجد ما يفرض عليها البقاء.. أراد أن يذهب برفقة أمه وأخته للعمرة.. أراد أن يكافئ والدته على صبرها وتحمُّلها لمرارة الأيام بدون والده ويكافئ أخته لوفائها بعهدها وحصولها على تقدير الامتياز وتجاوز آخر سنوات تعليمها .

دخل عليهم المنزل ليجدهما جالستين أمام التلفاز.. أمسك بالريموت ثم خفض الصوت قليلًا ثم ذهب وقبَّل رأس والدته قائلًا:

-مبروك يا أمي.. ربنا كتبهالك عشان تزوري الكعبة .

دمعت عين والدته.. لم تستطع أن تصف شعورها وفرحتها بابنها وسندها في الدنيا.. مسح دموعها ثم اتجه لهاجر قائلًا:

-وانتي كمان يا بت يا هاجر جاية معانا.. ودي هديتك .

قفزت هاجر من مكانها لم تكن تتوقع أن تكون هذه هي المفاجأة.. احتضنت أخاها من الفرحة وقبَّلته ولم تكن تريد أن تتركه ولكنه أنزلها ثم قال:

-السفر الأسبوع الجاي إن شاء الله، حضَّروا نفسكوا كويس بقى . تمر الأيام ولم يخبر حور بأي ترتيب من الترتيبات.. كانت تتصل به دومًا ولم يردِ إخبارها قط.. وجاءت ليلة السفر ليستقبل اتصال حور اليومي.. ضغط زر الاستجابة ورفع الهاتف على أذنه قائلًا:

-السلام عليكم..

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

-ازيك عامل إيه.. يارب تكون أحسن النهارده.

-الحمد لله أحسن جدًا..

-يااااه.. أول مرة تضيف كلمة للحمد لله .

-أه، أصلي مبسوط أوي .

-طب ما تفرَّحني معاك بقى.. ولا أنا مكتوب عليا أشوفك وأنت مكشر بس .

-أنا مسافر مكة بكرة أنا وأمي واختي.. رايحين عمرة .

أجابته بصوت مضطرب:

-بكرة يا مالك.

شعر بالذنب تجاه تجاهله لها ثم قال:

-أيوة بكرة .

-ولسة جاي تعرَّفني دلوقت؟!

-محبتش أشغلك معايا..

انزعجت من رده، ولكنها هدأت من نفسها وبدأت تخبره بصوت هادئ يملؤه حب وحنان:

-أنا مبسوطة بانشغالي بيك.. مبسوطة لما بعرف عنك كل حاجة وأنت أصلًا مش معرفني حاجة.. ليه كده يا مالك ؟

-مفيش حاجة تعرفيها يا حور.. أنا كويس وهطمنك عليا من هناك .

-حاضر.. خرجت منها حزينة مكسورة .

أنهى المكالمة قائلًا:

-خدي بالك من نفسك الأسبوعين دول.. لا إله إلا الله.. سلام .

-سلام يا مالك.

أغلقت الهاتف ونظرت لاسمه على الشاشة كثيرًا، ولكنها لم تعلم ماذا ستفعل.. بعد كل هذه الفترة لم يتغير كيف استطاع أن يأخذ قرارًا كهذا ولم يخبرها به إلا في آخر لحظة.. ماذا تكون بالنسبة له وهو أصبح كل حياتها.. أحبَّته وعشقت تفاصيله من لقائين بالصدفة.. أحبت سمات الرجولة به.. لماذا يعاملها هكذا.. انتبهت من شرودها:

-أنا لازم أخد قرار في العلاقة دي.. لازم ألاقي حل .

استطاعت أن تتعلم منه أن تدوِّن ما تريد بذاكرتها وبأجندتها الخاصة التي خصصتها لكتابة الأشياء المشتركة بينهما.. أول شيء سوف تفعله بعد عودته هو زيارتهم بالمنزل لتبارك لهما وأن تتعرف على أخته.. فهي التي سوف تساعدها لاجتياز الحواجز التي وضعها مالك حوله كي لا تستطيع أي أنثى عبورها سالمة غانمة لتهنئ بهذا القلب الجريح.. الذي يحمل في طياته خيبة أمل كبيرة لا يستطيع أن يتحملها من هو في مقتبل شبابه ولاحتى من بلغ من العمر أرذله .

لم تنم والدته يومها.. وصلَّت الفجر حاضرًا وجلست بين يدي الله وبدأت بالدعاء ليتقبل منها صلاتها ويبسط رحمته على أولادها وأن يهديهم ويسعدهم ويرزق مالك بالزوجة الصالحة وأن يسهِّل له أمور حياته.. ومن الناحية الأخرى هاجر وأخوها مستغرقان في النوم لأن اليوم يبدو طويلًا مُرهقا خاصة أن مالك هو من سيتمم جميع الإجراءات، نبَّه عليها مالك أن ميعاد وصول السيارة التي ستأخذهم للمطار ستكون أمام

المنزل في العاشرة تقريبًا.. استيقظت هاجر فيما يقارب الثامنة .ارتدت لباسها الأبيض الناصع وقبّلت يد والدتها دخلت لتوقظ مالك في غضون التاسعة وجدته مستيقظ يقرأ في المصحف قبل الرحيل.. ابتسمت له.. رد البسمة بنظرة حانية ثم أجلسها أمامه وأخبرها بأنه لا يريد في دنياه سوى رضا أمه ثم رضاها وسعادتها.. يريدها أجمل عروس تتزين يوم زفافها.. يثق بها وفي قدراتها أنها ستكون أنجح منه في حياتها، ولكنه بعقلية الأب يشغل نفسه بتفاصيل حياتها ويريد أن يطمئن عليها، ولكنها ابتسمت وهزت رأسها متفهمة كلامه ثم أجابته قائلة:

-أنا وماما مستنينك برا يا مالك.. العربية جاية في الطريق.

وضع قُبلة على جبينها، وقام ليرتدي زِي الإحرام.. سمع بهاتفه يرن.. نظر للشاشة وجده مصطفى.. ردَّ عليه ليخبره الأخير أنه على وصول برفقة السائق.. أنجز مالك مهامه سريعًا وخرج لوالدته وأخته، احتضن والدته وقبَّل يديها فربتت على كتفه وأردفت قائلة:

-عارف يا حبيبي.. أنا مش هروح عشان أحج ليا.. أنا هروح عشان اعتمر لابوك الله يرحمه.. هو مات وأنتوا صغيرين بس كان بيحبكوا أوي وهيفرح بيك أوي يا مالك لما يشوفنا هناك.. ربنا ما يحرمنا منك يا ابني ويسعدك ويرزقك من وسع يارب .

لم يتكلم مالك وترك عيناه تتحدثان بالشكر لوالدته التي ربَّته حتى أصبح رجلًا يُعتمَد عليه.. وسط هذا الجو الهادئ الحنون جاء صوت مصطفى من على درجات السلم:

-مااااااااااااااااالك.. يا حاااااااج مااااااااااالك.

خرج له مالك ضاحكًا ثم قال:

-اطلع يا ابني وبطَّل هزار.. أنا لسه رحت أصلًا

أجابه مصطفى بنبرة مازحة:

-انزل أنت السواق متعصب عليا ياعم متأخرين .

حمل الحقائب وطلب من والدته النزول سريعًا ليصلوا المطار في الميعاد.. قابله مصطفى على درجات السلم وأخذ منه إحدى الحقائب مازحًا:
-عنك يا حاج.

ردَّ عليه بنبرة ساخرة:

-بارك الله فيك.. انجز بقى وبطل هزار هنتأخر على الطيارة كده .
ردَّ مصطفى قائلًا:

-يلا ياعم .

ركب مالك وعائلته السيارة الأجرة وصمم مصطفى على الذهاب معهم لمطار القاهرة أخبره مالك أنه لا حاجة لذلك، ولكنه أصر قائلًا:
-أنا لو مسافرتش يعني وأنا بوصل أخويا للمطار أسافر عشان مين .
احتضنه مالك عاجزًا عن شكره لأنه دومًا يثبت له أنه أكثر من أخ وليس مجرد صديق.. وصلوا المطار في الموعد المحدد وأنهى الاجراءات وجميع الأوراق وسلم أخيرًا على مصطفى الذي وصَّاه على المحل.. انتظر مصطفى حتى أقلعت الطائرة ثم غادر عائدًا للإسماعيلية.. يجلس كل من مالك وهاجر ووالدتهما في الطائرة.. أمه مستغرقة في قراءة القرآن وهاجر نائمة.. أما هو فلا يعلم ماذا يفعل.. ألائق به أن يفكر في حبيبته

في مثل هذا الموقف ولِمَ لا فهو بعد يوم أو أقل سيكون بين يدي الله وفي بيته وفي رحمته الواسعة.. إذن فليؤجل التفكير والدعاء لحين الوصول.. مرَّ وقت السفر عليه مستغرقًا في تلاوة القرآن وسرد الأذكار.. فهو يريد أن يعود من هذه الرحلة الروحانية مفعمًا بالطاقة والنشاط والإيمان.. يريد من الله أن يهدِّئ سره ويُطمْئن قلبه .

وصلوا المطار ومن بعدها إلى الفندق لتبدأ في صباح الغد مناسك العمرة.. مرت الأيام على مالك وعائلته الصغيرة بسعادة وروحانية بجانب بيت الله الحرام يؤدون المناسك ويعودون للفندق أو شراء بعض الهدايا.. إنها رحلة قصيرة سوف تستغرق عشرة أيام.. مرت الأيام التسعة بسلام وبقى يومٌ على العودة.. انتهوا من الفرائض وشراء الهدايا.. جهز معهم الحقائب وناموا جميعا في انتظار الصباح ليعودوا إلى بيتهم سالمين.. وفي اليوم التالي ذهب مالك للحرم مرة أخيرة قبل الذهاب للمطار.. أراد أن يناجي ربه في محادثة أخيرة بجانب البيت العتيق.. أخبر هاجر أن تنتظره هي ووالدته وهو سيعود بعد قليل قائلًا:

-هروح بس الحرم مرة أخيرة قبل ما نسافر يا أمي.. مش هتأخر .

أجابته بنظرة حانية كعادتها:

-زي ما تحب يابني.. بس متتاخرش عشان الطيارة متفوتناش .

هزَّ رأسه متفهمًا وغادر سريعًا ليعود سريعًا.. لا يريد من الوقت الكثير للاختلاء بنفسه مع خالقه.. جلس بالقرب من الكعبة.. بدأ في مناجاة الذي لا يغفل ولا ينام.. والذي أيضًا يعلم سبب وجوده هنا لم يرفع يده

للسماء ولم ينطق بكلمة واحدة جعل الحديث يكون بين قلبه وربه.. بدأ المحادثة قائلًا:

-يارب انت عارف أنا حياتي إيه اللي بدِّلها كده يارب أنا مش معترض بس انا مش قادر أعيشها كده.. هي كانت كل حياتي.. أنا كنت هتقدملها بس هي اللي قالت أستنى شوية.. يارب أنا عارف أن دا ولا وقته ولا مكانه اللي أكلمك في حاجة زي كدةبس أنا محتاج أطمن محتاج أعيش.. محتاج أبطل احتياج.. ينفع يارب؟!

جاء صوت من داخله يحدثه:

-أنت عارف الحل ومع ذلك مش عايز تسمع كلامي علطول بنصحك وأنت رافض حتى تسمعني.. خرج صوته بدا لمن حوله كأنه مجذوب يتكلم مع السراب:

- اسكت أنت.. أنت بتعمل إيه دلوقتي عايز إيه.. حتى وأنا بفضفض مع ربنا أنت مش سايبني في حالي .

-أنا منك يا مالك أنا أنت.. وتعبان لتعبك.. وراحتك عارفين طريقها وأنت مش راضي تسمع الكلام .

-أنا همشي وأسيبلك الحتة كلها.. مش عارف أخد نفسي منك في حته خالص .

غادر مالك المكان مسرعًا يريد اللحاق بوالدته وهربًا من الصوت الذي يلاحقه كلما أراد أن يتكلم مع نفسه.. غادر المكان يلوم نفسه لأنه انصرف بهذه الطريقة، ولكنه عاد سريعًا إلى الفندق في الميعاد الذي اتفق مع والدته عليه.. وجد زحامًا أمام الباب الرئيسي وورقة كبيرة مكتوب عليها

اسمه.. هرول مالك مسرعًا ليرى ماذا حدث.. وصل لحامل الورقة يسأله فأخذه للاستراحة.. أوصله لأخته التي كانت وسط بؤرة أخرى مزدحمة بالبشر.. أجهشت في البكاء عندما رآته وبجانبها جسد ممدد ومغطى بملاءة بيضاء .جلس أرضا بجانب الستار الأبيض الحاجز بينه وبين والدته .لم تنطق أخته بما حدث ولكنه توقَّع.. جلس على ركبتيه ولم ينطق ولم يذرف دمعة واحدة.. جاء الصوت من داخله في اللحظة التي رفع فيها الملاءة عن وجه والدته، قبَّلها وأخذ رأسها بيديه ووضعها على رصدره ولم ينطق ولا حتى بأنين مجروح، ولكن نفسه حدثته ونبشت في جرحٍ كبير ينزف إثر وفاة والدته.. أخبرته نفسه أنه اليوم يتيمٌ.. أنه اليوم أصبح الأب والأم لهاجر.. أنه اليوم أصبح في الدنيا بلا ظهر فوالدته كانت تمنع عنه ما تتحمل من مصائب الدنيا.. نظر مرة أخرى لأخته، جذبها إليه.. احتضنها وهدئ من روعها وهو يموت بداخله ولا يجد ما يهدئه.. يريد أن يعرف ما حدث، ولكن أخته في حاله يرثى لها، ولكن الأهم أن والدته ماتت، لا سبيل أمامه الآن غير التفكير في دفنها.. صوت يأتيه بأنها لم تمت.. ينظر لها ثانية ليجدها ماتت وروحها لم تعد فيها.. عينها لا تنظر إليهما.. نظر لهاجر بيأس قاتل ثم قال:

-لو بتحبيها اقريلها قرآن.. ادعيلها بالرحمة دي ماتت جنب بيت ربنا .
لم يرد أن يترك والدته كما هي تركته الآن.. في وجودها كان مطمئنا على أخته أما الآن فالحياة تحولت من الأسود إلى الأسود الغامق.. قام مالك باستدعاء الإسعاف للذهاب بوالدته لأقرب مستشفى لإجراء اللازم بعدما طلب من الناس المتجمهرة حوله هو وأخته ووالدته الإنصراف.. كانت هناك سيدة كبيرة وبنتها لم ترد الانصراف فربتت السيدة على كتف

مالك وذهبت ابنتها للجلوس بجانب هاجر.. مَن هؤلاء يا ترى لا يعلم ولا يريد أن يسال.. نظر للسيدة بعينين حمراوين ولكن لا دموع فيهما.. وكأنه يبكي والدموع تنهمر بداخله، ولكن احمرار عينيه موجود.. حمل والدته داخل عربة الإسعاف حال وصولها لم يقل لأخته كلمة ولكنه ممسك بيدها طول الطريق يحاول طمئنتها يجلس معهم في العربة، السيدة العجوز وابنتها.. كأن الله أرسلهما له ليقفا بجانبه في هذه الظروف وهذا البلد الذي لا يعرف فيه أحدًا.. جلس مالك عند رأس والدته وبجانبه السيدة العجوز وهاجر عند قدميها تحتضنها تلك الفتاة التي لا تعرف حتى اسمها.. نزل مالك على ركبتيه اقترب بشفتيه من أذن والدته قائلًا:

سيبتيني لمين يا أمي..

مانتي عارفة اللي فيا..

وعارفة أنك كنتي شايلة عني كتير..

سيبتيني ليه وانتي عارفة إني من غيرك مسواش..

مش إنتي اللي كنتي بتقوليلي مش هسيبك غير لما أجوزك..

مشيتي يا أمي زعلانة مني عشان قولتلك مش هتجوز..

والله ماكان قصدي أزعلك..

انتي عارفة أنا كنت بصالحك بالحجة دي..

انتي هتقومي تروَّحي معانا صح..

مش هقدر على مسئولية هاجر لوحدي يا أمي..

طب دلوقتي انتي اللي كنتي بتعمليلي أكل..

هاكل من بعدك ازاي.. هخش البيت تاني ازاي..

قومي يا أمي.. إنتي سامعاني صح..

عمرك ما سكتي كده ومردتيش عليا..

قال كل هذا ولم يسمع له أحد صوتًا، تأخذ بيده السيدة العجوز وتخبره أن خيرًا لها أن يدعو لها.. ينظر لها بحنو وسكينة أنه يفعل ذلك.. وصلوا المستشفى ودخلت والدته مع الدكتورة والممرضة غرفة باصطحاب هاجر حتى ينتهي مالك من الأوراق اللازمة وإنهاء التصاريح.. لم تتركه السيدة لحظة واحدة.. طلب أن تكفّن ويذهب بها لمصر لتُدفَن هناك بجوار والده فردَّ عليه الطبيب المسؤول قائلًا:

-صعب أنك ترجع بيها مصر بعد ما اتوفت .

أمسك بيده وكأنه يستعطفه قائلًا:

-ليه صعب؟

-هيبقى مطلوب منك فلوس كتير.. وأظن انك مش هتقدر تدفع المبلغ المطلوب عشان تقدر تدفنها في مصر.. أنا مصري زيك ونصيحة ادفنها هنا.

هزَّ رأسه متفهمًا ما قيل له.. استوعب أنه ليس من السهل أن تخرج بجسد مفارق الحياة كما دخل البلد على قدميه.. انصرف الطبيب بعد أن أخبره أن من المعتاد أن تدفن مثل هذه الحالات في المكان الذي توفت فيه.. جلس على الأرض ولم يدرِ ماذا يفعل.. أيترك أمه ويرحل أم يأخذها

معه.. هنا تكمن المشكلة فهو لا يملك من المال ما يستطيع العودة بوالدته لتدفن بجوار والده.. جلس بجوار والدته ثم قال:

-ليا مين غيرك يا أمي.. سيبتيني لمين..

ولكنه لم ينطق بهذه الكلمات حتى لا تشعر أخته بضعفه.. فقط قالها بينه وبين نفسه.. أخذ أخته من يدها ليخبرها أنه سيدفن والدتهما هنا.. أنهى الأوراق المطلوبة وصلى عليها ثم دفنها.. ظل هو وأخته بجوار قبرها حتى ساعة متأخرة من الليل وشغله الشاغل هو طمأنة أخته وأن يطرد الخوف من قلبها ليشعرها بالأمان.. أصبح هو أخاها ووالدها ووالدتها.. نامت على كتفه من التعب لم يرد أن يوقظها، ولكنه اضطر لذلك.. أخذتهما السيدة التي كانت تنتظرهما عند باب المقابر بسيارتها هي وابنتها، لم ترد تركهما وألحَّت عليهما حتى ركبا السيارة لتوصلهما أينما يريدان.. عرضت عليهما المبيت عندها ، ولكنه أخبرها أن يومهما في الغد شاق.. إدارة المطار أخذت منه قبل رحيله التذاكر لتأجيلها لليوم التالي ولكن السيدة أخبرته أن أخته تحتاج العناية حتى الصباح وهو لن يسطيع أن يفعل ذلك.. سأل هاجر عن رأيها فوجدها توافقه الرأي فوافق على مضض أن يذهب معهم.. لم يتكلم طوال الطريق.. كان يحتضن هاجر ويربت على رأسها.. وصلا ودخلا البيت مع السيدة وابنتها .أخذت الفتاة هاجر بعد أن نامت من التعب.. جلس هو على كرسي ثم أسند رأسه وبدأ في تذكُّر ما حدث في خلال الأيام الماضية ودعوات والدته له المستمرة من بداية الرحلة حتى توفيت.. قام بجوار النافذة منتظرًا الصباح منتظرًا أن يقرأ لها الفاتحة لآخر مرة قبل الرحيل.. بدا عليه الاستياء من نفسه.. لم يذرف دمعة واحدة على فراق والدته ولكن قلبه محترق من فراقها.. ما

لهذا القلب الذي يتحمل كل هذا ومازال ينبض للعيش فقط.. استند برأسه على حافة النافذة.. لم يستطع النوم، ظل يستعيد ذكرياته مع والدته ويفكر في الحِمل الذي ثقل أكثر وأكثر بوفاتها.. دخلت عليه السيدة بكوب من اللبن وأخبرته أنه لم يأكل شيئًا ولابد أن يتغذى ليكمل حياته فالحياة لا تقف على أحد مهما كان مهمًا أو غاليًا علينا.. ثم حدثته باللهجة المصرية التي تجيدها من الأفلام والمسلسلات المصرية قائلة:

-مقدرتش أسيبك بعد ماعرفت أن مش معاك حد غير أختك وأمك.. أنت زي ابني .

ابتسم رغمًا عنه وهزَّ رأسه متفهمًا، ثم أردفت قائلة:

-إنت كمان شبه ابني الله يرحمه.. مات من سنتين .

شكرها على عطفها.. لم تخرج وتتركه إلا عندما تأكدت أنه شرب اللبن كطفل يحتاج حنان أم بعد أن فقدها قبل ساعات.. أخبرته أنها بغرفتها إن احتاج شيئًا.. أخرج هاتفه واتصل بصديقه وأخبره بما حدث وليطمئنه على أنهما سيأتيان صباح الغد .

أشرقت الشمس ومعها استيقظت هاجر.. وجدت بجانبها أخاها وفتاة في مقتبل الشباب؛ وجه خمري يميل للسمرة؛ عينان واسعتان، أنف منمقة شعر أسود داكن.. ملامح هادئة وجه مشرق رغم اللون الخمري.. وامرأة عجوز ترتدي إسدال الصلاة ملامحها تحمل من الأسى الكثير.. ولكن كان واضح جدًا اهتمامها بنفسها.. كانت تتجاوز الخميسن، ولكنك لا تستطيع أن تقر بذلك؛ استأذنا الوالدة وابنتها في الانصراف.. ذهبا مرة أخيرة للمقابر ومنها إلى المطار.. مرت ساعات الرحلة رتيبة عليهما ولا

يوجد بينهما حديث.. هي بين تارة والأخرى تبكي وترثي والدتها وهو يربت على يديها ويطمئنها يخبرها أنه بجانبها.. لن يتركها ولن يشعرها باليُتم.. يذرف هو الدمع بداخله.. يموت بموت والدته ألف مرة.. الحِمل زاد.. المسؤولية أيضًا.. وصلا المطار وركبا التاكسي مسرعين للمنزل.. هاجر مُرهَقة من السفر متعبة من إحساس اليُتم والفَقْد.. جهز لها الطعام.. لم يتركها تنام قبل أن تاكل.. أكل هو معها لقيمات لتجلس على المائدة وتأكل.. وبدأ الكلام معها:

-دي إرادة ربنا يا حبيبتي.. ادعيلها بالرحمة ومتعمليش في نفسك كده. أشارت برأسها توافقه في الكلام.. اتصل بمصطفى ليخبره أنهما وصلا وسيناممان من تعب الطريق.. اتصل أيضًا بخالته التي حاول أن يهدئها وبدورها ستأتي لهما في الصباح.. اتصلت به حور ، أخبرها أنهما في المنزل، ولكن لم يخبرها بما حدث وأغلق معها سريعًا متحججًا بالإرهاق..

دخل غرفته لينام.. لم يفكر في أي شيء حتى ولو قليلًا، أغمض عينيه بعد قراءة الفاتحة لوالدته.. نام مالك متمنيًا من الله لأول مرة أن يطيل في عمره حتى يطمئن على هاجر في أيدٍ أمينة .

* * *

مع اختفاء آخِر سبب للعيش في هذه الحياة.. يرسل الله لك طرفَ خيط جديدًا لتكمل به ما خُلِقت لأجله .

(5)

أخذت حور تسأل نفسها لماذا يعاملها هكذا.. أهذه هي المكالمة التي كانت تنتظرها أكثر من عشرة أيام.. هي تعلم ما يحمل في قلبه من جرح كبير.. ولكن هي أيضًا بشر ولها قدرة على تحمُّل هذه الحماقات.. كانت تنتظر منه أن يبين لها أنه افتقدها في هذه الفترة وأنه دعا لها في مكة.. ولكنها كالعادة لم تنزعج من تصرفاته ولم تقسُ عليه في احتمالاتها.. نامت لتبدأ غدًا يومًا جديدًا تذهب فيه لزيارته والتعرف على عائلته.. من خبرتها الاجتماعية تعلم أن الأقارب يزورون الحجيج بعد عودتهما فوجودها سيكون مرحِّبًا به .

في منزل مالك بعد مرور ساعتين من نومه، استيقظ وعيناه لم تستطيعا النوم أكثرمن ذلك.. جلس القرفصاء على السرير دفن وجهه بين يديه بدأ يتذكر والدته وسعادتها وفرحتها بوجودها في البيت العتيق.. كان أكثر دعائها له.. هو يعلم أنه أسعدها بهذه الزيارة، ولكنه مفتقدها.. مرت الساعات عليه رتيبة.. بين بكاء على والدته بصوتٍ لن يوقظ أخته من نومها وبين جمود لا يعلم سره.. أشرقت الشمس.. يعلم أن هاجر أكثر تأثُّرًا منه بفقدان والدتها فهو كان يقضي يومه بالعمل، أما هي كانت تقضي يومها بجانب والدتها كانتا صديقتين.. أحضر لها الإفطار ودخل به غرفتها وأراد أن يوقظها:

-هاجر.. اصحي يا حبيبتي يلا عشان نفطر .

ولكنها لم تستجب، بدا عليه التوتر وبدأ في هزها يمنة ويسرة، ولكنها لا تستجيب.. اتصل بمصطفى مسرعًا وبعد أن رد عليه صاح فيه قائلًا:
-هات دكتور وتعالى بسرعة .

أحضر الطبيب في أقل من ساعة أعطاها حقنة أيقظتها... أخبره أنها تعاني من مشاكل عصبية بسبب أزمة نفسية حادة.. كتب لها بعض المهدئات ورحل.. نزل مصطفى مع الدكتور ليحضر الدواء المكتوب في الروشتة.. أقل من عشر دقائق جرس الباس.. تحرك نحو الباب:

-هو لحق يرجع .

قالها وخرج ليفتح الباب.. وإذ به يفاجأ بحور أمام الباب ولا يدري ماذا يفعل.. لم يتكلم ولم يقل لها أن تتفضل بالدخول حتى استغربت لرد فعله الغريب، ولكنها أخبرته أنها ليست قادمة له، لكنها قادمة لوالدته وأخته وهمت بالدخول.. لم يستطع أن يمنعها ولكنها لاحظت جموده وعدم رده عليها.. دخلت فلم تجد أحدًا منهما في المنزل سألت عن أخته قائلة:

-فين هاجر وมامتك بقى عايزة اسلّم عليهم.. أصلًا أنا مش جاية عشانك .
-هاجر تعبانة شوية والدكتور لسه نازل من عندها.

-ألف سلامة مالها.. أكيد مامتك معاها جوة.. ممكن أخش اطمن عليها .
-لا هاجر نامت من الحقنة اللي خدتها.. عشان أعصابها .

-خلاص قول لمامتك إني هنا وجاية اسلِّم عليها .

استند مالك على أقرب كرسي ثم جلس ودفن رأسه بين راحتيه.. ثم بدأ في بكاء لم ترَه من قبل هذه المسكينة ثم قال لها:

-ماتت.. أمي ماتت.. رُحنا بيها رجعنا من غيرها.. ماتت .

-ازاي حصل دا وامتى ؟ قالتها حور في ذهولٍ .

أخبرها التفاصيل وحاولت أن تهوِّن عليه لما رأته في عينيه من وجع وأخبرته أنه أقوى من ذلك وقالت كل ما يقال في هذه الظروف؛ أن الله اختارها وقضاء وقدر.. ثم أردفت قائلة بعدما رأت الدموع تملأ عينيه:
-متبكيش.. انت أقوى من كدة.

ليرد هو بعد أن فاض كيله ونزف جرحه:

-أنا مش ببكي عشان ضعيف.. أنا ببكي عشان تعبت.. كل حاجة زفت كل حاجة ماشية معايا بالعكس.. حتى أمي اللي كانت مقوياني أهي سابتني ومشيت.. مشيت بعد ما حاجات كتير مشيت من حياتي.. مكانش باقيلي غيرها .
قاطعته بنبرة بها عتاب:

-إحمد ربنا وبعدين أنا روحت فين يا مالك.. أنا جنبك .

لتفاجأ برده:

-بس انا مش جنبك.. مش هتعرفي تبقى جانبي وانا مش جنبك .

-اسكت بس متتكلمش في حاجة واهدى .

تركها مالك واتجه للحمَّام، يريد أن يغسل وجهه من أثار البكاء.. تبعته ولم تدخل، انتظرته على الباب بمنشفة.. خرج فناولته المنشفة شكرها وأخبرها أن وجودها في المنزل الآن لا يليق بها.. نظرت له باستغراب ثم قالت:

-أنا هنا يا مالك من غير ماعرف اللي حصل.. أنا كنت جاية عشان..
قاطعها قائلًا:

-أنا عارف مش محتاجة تشرحيلي بس مصطفى زمانه راجع بالدوا دلوقتي ولو شافك هنا هيبقى شكلك وحش أوي.. وأنا مرضالكيش يبقى شكلك وحش قدام حد مهما كان متفهم الموقف أو عارفني.

نظرت له بحنوٍ بالغ قدَّرت خوفه عليها ثم وضعت يدها على كتفه ثم اقتربت من أذنه قائلة:

-البقية في حياتك.. ربنا يجعلها آخر الأحزان.. أنا همشي وهكلمك بالليل أطمن عليك.. اكتبلي رقم هاجر لو سمحت عشان عايزة أكلمها أطمن عليها .
كتب لها الرقم وأوصلها حتى الباب وودعها.. نزلت حور، قابلت مصطفى على السلم، ولكنه لم يكن يعرفها، ووجد مالك واقفًا أمام باب المنزل باهتمام بالغ.. عرف أنها قادمة من عنده.. صعد وأخذ مالك من رسغه ودخل به الشقة.. غادرت حور.. لم يسأل مصطفى مالك عن شيء مما حدث ربما كان وجه مالك يطلب من مصطفى السكوت.. دخل مالك على هاجر الغرفة أيقظها، أعطاها الدواء بعد أن أطعمها بنفسه وظل بجوارها إلى أن نامت.. عاد لمصطفى ونزل معه ليلقي نظرة على المحل ثم يعود .اتفق مع مصطفى أن يقف بدلًا منه يومين ليس أكثر كي يطمئن على هاجر ثم اتصل بالمدير وأخذ يومين إجازة مرضية ليتفرغ لتمريض هاجر.. مرَّ اليومان بعد اتصال حور بهاجر ومن الواضح أنهما أصبحتا صديقتين.. مرت الأيام رتيبة نفس الروتين اليومي اعتاد مالك وهاجر على المعيشة بدون والدتهما والحمد لله على نعمة النسيان .بدت حياتهما

طبيعية بعد مرور أقل من شهرين.. خلال هذين الشهرين كثَّفت حور جرعة الاهتمام بمالك مراعاة للحِمل الثقيل الذي وقع على عاتقه.. ولكن بدء الدراسة جعلها تغيب عنه لفترات في محاضراتها ومذاكرتها، ولكنها تعود له ثانية.. بدأ مالك في فك ربطة عنقه التي يحكمها بيده قليلًا حتى يستطيع أن يتحدث مع حور حتى ولو على سبيل الصداقة مع أنه يعلم أنها لا تريده صديقًا فحسب .

أصبحت هاجر وحور لا تفترقان.. تذهبان سويًا يوميًا للجامعة.. تذهب حور لكليتها وهاجر لعملها بعد أن عملت تحت التدريب في إحدى المكاتب الهندسية.. مكالمات مقابلات في منزل كل منهما.. وأصبح مالك بالنسبة لكل منهما الماء والهواء فهو لحور الحبيب القتيل.. من تريد إحياءه من موته مرة أخرى.. وبالنسبة لهاجر الأب والأخ والعائلة.. اتصلت هاجر بمالك في المحل لتخبره أن يحضر معه سلطات ومخللات لأنها قامت بدعوة حور على العشاء وتابعت قائلة:

-ياريت تيجي بدري بقى عشان تعمل السلطة.. أصل في ناس شكرت فيها المرة اللي فاتت وعايزين ياكلوها من إيدك.

رد عليها بنبرة ساخرة:

-أه مصطفى قالي المرة اللي فاتت إن السلطة من إيدي تجنن .

-استعبط استعبط حور كانت مش مصدقة أنك اللي عاملها.. بس أنا ظبطتك عندها .

-يا شيخة اتوكسي إنتي وهي.. أنا مش عارف أصلًا إنتي حبيتها ليه كده.مش غريبة؟

-أنت مالك ياعم.. دي حبيبتي ومراة اخويا إن شاء الله .

ردَّ مستنكرًا:

- انتي عارفة لو اديتها أمل في حاجة زي كده أنا ممكن أزعَّلك أوي يا هاجر.. ومش هتكلم في الموضوع دا تاني.. سلام .

أخذ مالك يعاتب ويلوم نفسه كثيرًا على قسوته على أخته وعلى حور في آنٍ واحد.. كيف له أن يعامل أخته الوحيدة التي أصبحت عائلته كلها هذه المعاملة.. وكيف يعامل حور بكل هذا البرود.. يعلم أن كل هذا بسبب خيبة أمل وحيدة.. كل هذا من أجل فتاة مرت في حياته مرور الكرام ولكنها لم تمر ولم تغادر حياته يومًا قَط.. أحبها كأنما لا يوجد في الحياة من نساء غيرها.. هي لم تكن تشبههن.. بل يشبهنّها.. نظر في الفراغ ليرى صورتها تبتسم له نفس ابتسامتها التي تعوَّد منها عليها.. نظر لها باشتياق لوحظ في عينيه.. يعلم أنها الآن ليست له، يشعر بها في أيادٍ أخرى غير يديه.. ثم بدأ يتمتم بكلمات لم تخرج من حيِّز صدره:

عارفة يعني إيه بحبك!؟

يعني من بعدك مبقتش أضحك من قلبي.. وبقيت عاقل أوي

يعني حاسس بيكي في كل حاجة بعملها.. وبقيت خايف أوي

يعني بشوف ضحكتك في كل الوشوش.. وبقيت ضايع أوي

يعني كنتي بنتي اللي اتمنيتها من الدنيا.. وبقيت لوحدي أوي.

عارفة يعني إيه حبيتك.. يعني بعتيني.. ودوستي عليا أوي.

خانته دمعة كان يتوقعها جيدًا.. ولكنه سرعان ما تمالك لأنه في العمل لابد أن يظل في المظهر القوي الذي لا يبكي ولا يضعف أبدًا.. مسح عينيه وظل يتأمل صورتها في الفراغ.. عاد الصوت مرة أخرى ليعكثن عليه صفو خلوته بنفسه، ولكنه لم يكن من داخله، كان هو صوت امرأة أربعينية مربعة الوجه قصيرة القامة أنف عريض أسنان منمقة عيون واسعة رائحة عطر يعلم أنها من ابتاعته منه:

-السلام عليكم يا أستاذ مالك.. إنت علطول سارح كده.. نفسي في مرة أخش عليك ألاقيك طبيعي .

كان يريد أن يطردها خارج المحل بسبب تسلُّطها.. ولكنه يعامل الناس باحترام ووقار، ردَّ عليها قائلًا:

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.. معلش يا ام فتحي.. الدنيا مشاغل بقى .

-يابني انت لسه صغير على الهم دا .

من داخله قال (وانتي مالك) ولكنه رد عليها بهدوء:

-مفيش هم ولا حاجة .تؤمريني بإيه .

-الأمر لله وحده.. عايزة إزازة ريحة بقى تكون إيه جامدة آخر 10حاجات.. عشان أبو فتحي جاي من السفر النهارده مشوفتوش بقالي 3أشهر .
-حاضر يا أم فتحي اتفضلي اقعدي وأنا هجيبلك حاجة هتعجب أبو فتحي.. ثم دخل المخزن ليحضر لها ما تريد قائلًا لنفسه:

-أنا مالي أنا جاي امتى ولا مشوفتيهوش من امتى.. ما تقولي أنا عايزة حاجة كويسة وخلاص ولَّا إنتي لازم تسيَّحي لنفسك إنتي والراجل.. ستات

آخر زمن صحيح.. أنا لو من أبو فتحي أطلقك وربنا.. أنا مش عارف مستحملك ازاي بلا قرف.. ولكنه لام نفسه لهذه الطريقة في التفكير بالناس لم يتعود على نفسه أن يكون هكذا.. خرج لها وأعطاها ما تريد ثم طلب منها أن تدعي له وتسامحه.. فهو في عرض دعوة بظهر الغيب.. أجابته:

-يارب أشوفك عريس يارب .

أجابها مبتسمًا:

-هو ده معنى الانبساط عندك يام فتحي.. الله يسترك يارب .

خرجت أم فتحي ودخل بعدها فورًا مصطفى، وأخبره أنه يريده في موضوع مهم، لكن مالك قاطعه أن يأتي معه للمنزل، ثم نظر له في عجالة قائلًا:

-إنت معزوم على العشا.. عشان هاجر عازمة حور.. والصراحة انت لما بتبقى موجود بتنقذني من حور وهاجر.. يلا عشان نجيب مخلل وطماطم وخيار عشان اعملهم السلطة .

لم يرد مصطفى أن يعكنن عليه صفو هذه اللحظة، فانتظر لتمر على مالك ولو لحظة سعيدة.. ردَّ عليه قائلًا:

-هتعملي السلطة يا بيضة شكلك في المريلة يجنن .

ردَّ عليه مالك:

-بس ياض يا اهبل انت.. هاجر بتحب تاكلها من إيدي .

-هاجر برضو؟

ياض بطّل لماضة.. أه هاجر.

-ياه لو تبطل مكابرة وتعرف إن البت هتموت عليك .

-وانا مُت على غيرها وانتهيت.

عقد مصطفى حاجبيه من رده ثم تابع:

-يلا يا نكدي نجيب المخلل .

سارا سويًّا بطول الطريق.. أحضر ما طُلب منه.. وصل المنزل صعد سلالمه كالعادة.. طرق الباب مع أنه معه المفتاح.. فوجئ بحور التي تفتح له الباب.. نكزه مصطفى نكزة بسيطة في جنبه.. دخلا بعد السلام عليها.. أخبرته أن هاجر بالمطبخ.. دخل لها المطبخ وسألها:

-هي هنا من دلوقتي بتعمل إيه.. ثم نظر لها وأكمل كلامه:

-كدة مينفعش.. البت بتتعلق بيا أكتر.. وانتي عارفة أني مش هكون لحد.. مش هفضل كل مرة أفهمك أن وجودها هنا بيخليها تفهم حاجات كتير غلط.. أنا ماليش غيرك انتي ومش عايز من الدنيا غير إني اطمن عليكي.. إنما هي كل يوم بتتوهم أكتر.. وانا عشان ذوق معاها ممكن تفهم دا غلط.. أنا مبقتش انفع يا هاجر.

-يعني انت مزعقلي في التليفون وجاي تكمِّل عليها هنا.. أنا عشان بحبك خايفة عليك وعارفة إنها هتموت عليك وبتحبك ومش هلاقي واحدة تحبك أدها.

-أنا بتعامل معاها في حدود الصداقة وانها صاحبتك وبس.. غير كده قوليلها تنسى.. وادي راسك ابوسها يا ستي.. أنا ليا كام هاجر.. متزعليش يابت.. خدي عشين جنيه أهي .

-كل مرة تضحك عليا بكلمتين .

-كلمتين بس.. وبالنسبة للعشين جنيه .

-إلبس مريلتك واعمل السلطة وبطَّل لكاعة .

تناول مالك "المريلة".. ارتداها وبدأ في تقطيع الطماطم والخيار ثم خرجت هاجر من المطبخ لتحضر شيئًا من الخارج ثم دخلت حور، وقفت على باب المطبخ تشاهده في صمت.. تراقب حركة يده ومسكته للسكين.. شهيقه وزفيره.. سرحت في عالم آخر لم ترد العودة للأرض أبدًا.. تريد أن تختطفه وترحل.. ولكن قبل أن ترحل تريد أن تمسك هي السكين تخرج مركز الذكريات في عقله وتنظفه تمامًا.. تخرج قلبه وتشقه نصفين وتخرج تلك الوقحة منه.. التي لم تحمد الله على هذه النعمة التي كانت في يدها.. بل أهملتها ورمَتها في دوامة الحياة وحدها.. فوجئت به يطلب منها الانتظار بالخارج، ولكنها صممت على البقاء.. نادى على أخته كي تغرف الطعام فهو قد انتهى من إعداد السلطة.. نظر لحور نظرة يأس ثم خرج.. جلس بجوار مصطفى أمام التلفاز ثم سمع صوت أخته تناديهما لتناول العشاء .

أخذ مالك صديقه من يده، جلس كل منهم على الطاولة.. بدأوا تناوُل الطعام.. لم تأكل حور أي لقمة حتى نظرت لمالك تتأكد من أنه يأكل.. حبه عصف بقلبها عاد بها لسنين طفولتها.. حب لا تعلم سببه.. انتهوا من

الطعام.. وخرج مصطفى ومالك للبلكونة.. ليبدأ مصطفى في الحديث مع مالك في موضوع هام.. دخلت هاجر وحور للمطبخ لعمل الشاي وغسل الأطباق.. سرح مالك في منظر السيارات وصوت الكلاكسات العالية بدأ مصطفى في الكلام:

-لسة بتفكر في مريم؟

-أه..

-هتفضل كدة كتير؟

-أه..

طب عايز أقولك على حاجة حصلت النهارده.

-قول ياعم.. إيه الموضوع اللي عايزني فيه .

في هذه اللحظة دخلت هاجر عليهم بالشاي.. وأخبرته أن حور تريد المغادرة.. خرج وسلَّم عليها وأخبرته أنها ستتصل به بعد وصولها لتطمئنه عليها.. ودعها.. وعاد لمصطفى ليرى ماذا يريد..

- ها بقى يا سيدي!؟

-مريم اتخطبت.

ضحك مالك ضحكًا هيستيريا فقاطعه مصطفى:

-بتضحك !!

أجابة مالك بنبرة جريحة:

-اه بضحك.. بس على نفسي.. ولّا عايزني أكشَّر وابكي وازعل على قلبي اللي معاها ولّا على فستانها اللي كانت لابساه النهارده اللي كنا مختارينه سوا.. ولّا على الكوشة اللي وعدتني انها مش هتقعد فيها جنب حد غيري.. ولا على حتة الجاتوه اللي أكّلتهاله.. ولا على الأغنية اللي رقصوا عليها سوا وهي عارفة إني اللي مختارها ولا ولا ولا...

قاطعه مصطفى:

-إيه دا أنت كنت هناك!؟.. بس ازاي.. أنا جيت لاقيتك في المحل.
-لا مارُحتش.. بس روحي مستحملتش.. وسابتني وراحت.. كنت شايفها من هنا .

-معلش.. متزعلش.. مش نصيبك.

-مش زعلان.. بالعكس أنا فرحانلها.. مش شايفني بضحك أهو .

لم يجب مصطفى ولكن مالك نظر له والدموع تملأ عينيه.. ولكنه لأول مرة منذ زمن يشعر برغبة في الكلام.. يريد أن يُسمِع آذان الدنيا بأسرِها قصته ويرى حكمهم فيما اقترفت يداه.. أكُلّ هذا الألم لأنه أحبَّ بإخلاص.. أهكذا تكون الدنيا لمن يعزم فيها على الحب بقوة وعنف.. جلس مالك على الأرض وبدأ يتكلم بصوت مبحوح يغلب عليه البكاء ولكنه متماسك.. ماذا فعل لها غير أنه أحبَّها بصدق.. أهذا هو جزاء المخلصين.. كم من مخلص وقع حظه في من استطاعت أن تجرحه.. وكم من مخلصة وقع حظها في من لعب بمشاعرها.. أحبَّها ولا يعرف السبب.. هي في عينيه خير نساء الأرض.. استأذن مصطفى بالرحيل وأراد الانفراد بنفسه.. دخل غرفته وأخرج آخر صورة تبقت معه بعد ما أحرق كل

متعلقاتها.. وكل شيء كان عنده يخصها.. نظر لها بأسى وخوف حقيقي.. ثم أجهش في البكاء وبدأ يتنهد ويتكلم بصوت ممزوج بالبكاء:

-خلاص كده.. بقيتي رسمي لحد تاني.. نسيتي مالك.. نسيتي كل اللي كان بينا.. حبي ليكي خوفي عليكي.. مش فاكرة لما قولتلك إنتي اللي بتكمليني . انتبه للصورة وهي مبللة من دموعه المتناثرة عليها.. انتفض ومسحها بطرف ملابسه.. لا يريد إتلاف آخر ذكرى لها عنده.. أخرج هاتفه وبدأ يبحث في الأرقام:

-إنت هتعمل إيه..

-هتتصل بمين دلوقتي..

-إوعى تقولي هتتصل بمريم..

-تبقى مجنون.. إعقل يا مالك..

-اتصالك بيها هيتعبك مش هيفيدك أبدًا..

تزمجر ضيقًا من هذا الصوت الذي يلازمه كلما قرر أن يصيب قلبه بسهم آخر.. جاء بورقة وقلم وبدأ يكتب لها آخر رسالة رغم أنه يعرف أنها لن تقرأها..

أخذ نفسًا ثم بدأ: ممكن طلب؟ متمشيش هتمشي ازاي وانا متعلق بكل تفاصيلك.. في فيونكة صغنونة على كتف بلوزتك، وخاتم مالوش مكان إلا في صوابعك، عينيكي اللي دايمًا بتهرب مني مكسوفة، ودَمعة وسط الزعل مش راضية تنزل.. مخنوقة، ضحكة مستخبية ورا التكشيرة.. تكشيرة بدلع لما بغلط غصب عني.. عيون متكحَّلة.. مينفعش تبص لحد

غيري.. إنتي دايمًا جوَّا قلبي.. بين ضلوعي زَي طيري، إنتي الوحيدة اللي بكون قاصد انسى غلطاتها، عشان حبنا أكبر من الحاجات دي بكتير، أكبر من ردة سلام على ولد أنا منبه عليكي متكلميهوش، ولا إنك خرجتي من غير إذني.. مع إنك عارفة اني بقلق، معاكي بس عرفت يعني إيه حُب.. صوتك اللي عندي أحلى من كل الأصوات اللي في الدنيا.. صوتك اللي بيفرَّحني في كل مرة اسمعه.. أكيد محدش قالك إنك أحلى بنوتة في الدنيا، أصلهم مش شايفينك بعينيا.. إنتي مالكيش وصف.. الوصف ظلم ليكي.. عارفة لما بتوحشيني، بتبقي قدام عينيا منين ما اروح ،، بحلم بيكي وانا صاحي.. بتخيلك برسمك على باب عينيا، فاكرة أول مرة اتقابلنا فيها.. حسيت ساعتها أنك بنتي.. حبيت حاجات كتير بس عشانك، وكرهت حاجات حبيتها قبلك عشانك.. عارفة؟ هستناكي.. لو مش هنا هيكون في مكان أحسن، ومش هخلي حد ياخد قلبي منك، حتى لو مش عاوزاه، كل الكلام ده ولسه.. في جوَّا مني كتير.. يمكن مش عارف أعبَّر.. عشان واخدة من قلبي كله.. ومن تفكيري.. كله.. ده إنتي أصلا حلمي كله.

وبعد أن انتهى من كتابتها بدموعه.. استمع لندائه الداخلي وأحضر رقم حور.. واتصل بها لتجيب على الفور لكنه لم يقل سوى جملة واحدة: أنا عايز أشوفك بكرة .على قدر فرحتها بسبب هذا الطلب، انتابها القلق من نبرة صوته وإحساسها به.. اتفقا على المكان والموعد ثم أغلق الخط ليتركها في حيرة منتظرة هذا اللقاء.

* * *

الذكريات.. أحيانًا تؤلم من سيعاني من عواقبها

وليس من عاشها .

(6)

المستشفى العام بالإسماعيلية..

الساعة الواحدة بعد منتصف الليل..

طوارئ

استقبلت المستشفى حالة طارئة يشتبه في "زايدة" أبلغت الممرضة الطبيب النوباتجي فأمر بتجهيز غرفة العمليات.. يرقد مالك على "التورولي" لا يرى سوى النور الأبيض الخافت من لمبات النيون المعدمة في المستشفى.. جُهِز للعملية من قِبَل الممرضة التي استعجبت لعدم وجود أي من أقاربه معه.. أتى به سكان المنطقة للمستشفى.. ولحقهم صديقه بعدهم بأقل من نصف ساعة.. دخل غرفة العمليات بعد أن طمأن الطبيب مصطفى بأن العملية سهلة.. وبعد أقل من ساعتين سيعود صديقة له بأمان.. مالك يتلوى من الألم ولكن دكتورة "البنج" لابد أن تقوم بالمطلوب.. وضعت المحقنة في مكانها المحدد لها.. انتظر مصطفى بالخارج نبضات قلبة تلاحق عقارب الساعة التي يريد أن تقفز لـ 120دقيقة مرة واحدة.. مالك بالنسبة له ليس صديقًا وحسب.. مرَّ الوقت على الطبيب روتيني جدًا.. عمليه سهلة.. مالك في عالم آخر لا يعلم أحد فيما يفكر غير الله.. مصطفى بالخارج تظهر عليه علامات الخوف، خرج الدكتور ليجد مصطفى جالسًا على بلاط الطرقة.. لمحه فجرى عليه يسأله.. ابتسم الطبيب وأخبره أن صديقه في حالة جيدة

وهو سيفيق من تأثير البنج في خلال الساعات القادمة.. سار مصطفى بجانب الترولي الذي ينقل مالك من العمليات لغرفته في المستشفى.. الغرفة التي تضم من المرضى عددًا لا بأس به.. جميعهم معلق لهم المحلول الطبي.. وتمر عليهم الممرضة من وقتٍ لآخر.. جلس مصطفى بجانبه، غلبه النوم بعد ساعات.. استيقظ مالك يجده جواره.. متحاملًا على ألمه استند واعتدل في جلسته وأيقظ مصطفى ليجد في عينيه نظرات سعادة بعودة صديقة إليه سالمًا.. سأله إن كان أحدٌ قد علم بما جرى فطمأنه أنه لم يخبر أحدًا خاصة هاجر لكي لا تقلق على أخيها.. فهي ووالدتها في زيارة خالتها في القاهرة.. أحضر له مصطفى بعض العصائر ثم أمره مالك بالانصراف والعودة في الغد.. فلابد أن يأخذ قسطًا من الراحة.. الشمس قاربت على الظهور.. يوم جديد يبدأ.. جرحه يؤلمه ولكنه مل الجلوس.. طلب من الممرضة أن يتحرك في الغرفة قليلًا، ولكنها رفضت بشدة:

-إنت جرحك لسه ملمّش وأي حركة غلط عليك.

نظر لها بيأس ملأ عينيه.. وأجاب كطفل مطيع:

-حاضر.

بدأت الحركة تدب في المسشتفى.. وبدأ الروتين اليومي لاستقبال الحالات.. حمد الله أنه أقل المتضررين والمصابين في هذا المكان.. شعر بنعمة الله عليه.. يريد أن يتحرك بعد أن دبت جيوش النمل تهاجم قدميه.. ويريد أن يحركها ولكن جرحه يؤلمه.. استغل فرصة انشغال الممرضات بالحالات الجديدة وبعد حقنة كل ثلاث ساعات.. تحامل على ألمه واستند على السرير الحديدي.. وحاول القيام، ولكنه كاد أن يقع

ليجد يدًا تسنده وتساعدة على الوقوف.. كأم تساعد وليدها على تعلُّم المشي.. ظن أنها ممرضة وسيسمع منها ما لذ وطاب، ولكنه نظر لصاحبة اليد الحانية ليجدها فتاة لم تتعدَ العشرين عامًا.. عينان بنيتان.. قصيرة القامة.. ترتدي رداءً مماثلًا لما يلبس؛ أزرق اللون الخاص بالمرضى.. تلاقت أعينهم لأكثر من دقيقتين .ساد الصمت بينهما لا يسمع حتى صوت المرضى والآهات والممرضين.. سألته أين يريد أن يذهب.. فلم يجب ولكنه نظر للشرفة المطلة على النيل.. نظرت له في عتاب.. ثم قالت:

-بص بقى.. أنا سمعت الممرضة وهي بتقولَّك مفيش حركة عشان الجرح.. أنت عنيد ليه بقى.. قمت وكنت هتقع.. ومع ذلك عايز برضو تمشي والجرح لسه ملمِّش .

نظر لها باستغراب بالغ، ولكنه غير قادر على النطق فهي صادقة فيما قالت ولا يستطيع أن ينكر كل هذا.. ولكنه أجابها بهدوء يصحبه ألم سحيق بسبب الجرح:

-أنا عارف.. بس انا زهقت ورجلي كمان نمِّلت.. غصب عني.. مش متعود على التكتيفة دي.. وبعدين انا سمعت الكلام وبقالي أكتر من 6ساعات متحركتش .

نظرت له بعين تملؤها الدموع.. نظرت له بحنوٍ لم يرَه من أنثى من قبل.. وكأنها تلومه على كلامه الذي لا يعلم فيما تعاني.. فهي أيضًا مريضة ولا يعلم مما تشتكي.. ولكنها سرعان ما ابتسمت له وهي تجلسه على السرير وتسند قدميه لتضعهما في مكانهما حتى يستريح ويهدأ جرحه:

6-ساعات.. وجاي على نفسك كدة.. ماشي يا عم.. معلش بقى استحمل عشان الجرح يلم بسرعة وتقوم بالسلامة.. لصاحبك اللي كان هيتجنن عليك .

اتجه بنظره أرضًا.. ثم تذكر أنها ترتدي نفس ردائه.. وأنها من سكان هذه المستشفى.. عاد بنظره لها.. ثم سألها:

-إنتي بقى بتعملي إيه هنا.. وكمان إيه اللي ملبّسك البتاع الرخم دا؟ نظرة عينيها أخذته لعالم سحيق.. نظرة حنو.. نظرة بها وجع سنين وسنين لم يرَها إلا في عيني والدته منذ وفاة والده.. نظرت له وكأنها تتأمله.. وهو يداعب أنفه ببلاهة قائلًا:

-جاوبيني بقى قبل ما الممرضة تخش يديني الحقنة .

أردفت قائلة:

-أنا هقوم اخد الجرعة وأجيلك بعد ما تاخد الحقنة .

همَّت بالرحيل عن عالمه الصغير الذي لم يكمل العشر ساعات.. شعر بالهواء يغادر رئتيه.. ولكنه علم أنها كما أتت له من الفراغ حتمًا ستعود.. فسألها عن اسمها فأجابت دون أن تلتفت له:

-مريم .

لأول مرة منذ أفاق من تأثير البنج كان يحب الألم لأنه يذكِّره بها.. لا يعلم ماذا أصابه في هذا الشيء المستكين بين طيات صدره.. هل الحب يأتي فجأة دون أي مقدمات.. من تكون هذه الفتاة التي ظهرت له فجأة.. تتبعها بعينيه وهي تخرج من العنبر برفقة الممرضة.. استند بظهره قليلًا ليريح جرحه في انتظار عودتها.. أغمض عينيه قليلًا، رجع برأسه للوراء..

سافر بخيالاته لعالم يتمناه.. شعر بأنفاس تقترب، بيدٍ مُدَّت لتوقظه.. فتح عينيه ليرى مصطفى يجلس أمامه ومعه عصائر وفاكهة ومثلجات ليبدأ مالك الكلام:

-مش عارف أقولك إيه يا درش.. ربنا ما يحرمني منك .

-عيب عليك يا معلم.. بس اعمل حسابك بقى تشد حيلك عشان في ماتش بلايستشين اتاجل بسبب الموضوع دا .

-تليفوني معاك صح؟

-أه معايا .

-حد اتصل؟

-أه هاجر اتصلت وقولتلها انك نزلت تجيب حاجات ونسيت تاخد الموبايل معاك.

-جبت المُخ دا منين ياض .

-تلميذك يا بو المماليك.

-طب يلا اتكل بقى شوف وراك إيه.. روح .

-لا ياعم هقعد معاك شوية .

-لا روّح.. ولما أعوزك هكلمك.. انت متعطل معايا .

- مالك يا ابني عينك بتلمع ليه تعبان من حاجة؟

كانت مريم تمر من أمام باب العنبر مستندة على كتف امرأة كبيرة والممرضة.. يبدو عليها الإعياء الشديد.. نظرت له لتجده يتحدث مع صديقه فرمقته ثم تابعت سيرها .

لا يدري لماذا يريد أن يسندها هو.. لا يعلم السبب ولكنه فجأة شعر بأنها "مسؤولة منه."

-لا خالص، ناولني بس تليفوني واتكل انت على الله .

-ماشي ياعم براحتك.. هكلمك لما أروّح بقى .

غادر مصطفى والقلق يسيطر عليه من نظرات مالك وعينه اللامعة اتجه للطبيب ليطمئن عليه سأله فطمأنه .

نامت هي على السرير وجلست بجانبها المرأة وغادرت الممرضة.. تحامل على ألمه وذهب وسلَّم على والدتها بعد أن عرف منها أنها ابنتها.. لم يرد أن يسألها عن مرض ابنتها ولكنه تبادل معها الحديث عنه وعن العملية المفاجئة.. سكتت أم مريم فسكت هو؛ عطفًا عليها من ألم رأسها.. كان الله في عون من لهم مرضى يعانون ويتألمون ولا يستطيعون أن يساعدوهم.. خرجت لتحضر لها عصائر فأخبرها أنه لديه تمنعت وشكرته.. قام هو وأحضر من عصائره.. وجلس بجوار رأسها.. هي على حالة تشبه الغيبوبة.. تارة تشعر بمن حولها وتارة تغمض عينيها.. نظر لها نظرة تصرخ حزنًا عليها ثم قال:

-اللي يشوفك وانتي بتسنديني.. ميشوفكيش دلوقتي.

ردت بنبرة يجتاحها الإعياء:

-لما بيكون عندي طاقة مببخلش بيها على حد وبعدين أنت إيه اللي جابك من عنبر لعنبر.. مش خايف الجرح يوجعك؟

نظر لها مبتسمًا.. يسأل نفسه من تكون هذه الفتاة التي لم يتكلم معها سوى عشر دقائق لتفعل به كل هذا.. مدَّ يده إليها بالعصير.. تمنَّعت.. عضَّ على شفتيه لتستجيب.. سندها لتعتدل في جلستها رغم آلامه.. بدأ يسقيها حبَّات العصير.. سألها عن طعمه أجابته جميل.. ولكنه قرأ الكذب في عينيها.. أراد أن يتحدث معها طويلًا.. ولكن والدتها أتت.. شكرته على مجهوده.. ابتسم لها وانصرف.. مرَّ اليوم رتيبًا عليه، تاره يقف في الشرفة وتارة أخرى ينظر لها ويراقبها.. يرى من يزورها.. اتصل به مصطفى أخبره أنه يأخذ الدواء والمحاليل في الميعاد وفي أقل من 48 ساعة إضافية سيغادر المستشفى.. ولكنه قرر ألا يرحل قبل أن يعرفها.. غربت الشمس.. نام هو من تأثير الأدوية.. استيقظ ونظر في هاتفه ليجدها الثانية عشرة بعد منصف الليل.. الجو هادئ العنبر مظلم.. لا يدري ماذا سيفعل حتى الصباح.. نام كثيرًا.. ذهب لها في فراشها لم يجدها.. هُزَّ كيانه.. قال في نفسه: "مش هسامح نفسي لو كانت مشيت وانا نايم ."

عاد لسريره ومنه إلى الشرفة ليجدها تقف في جانب بعيد مستسلمة لنسمات الهواء الباردة.. وقف جوارها.. لم تشعر به.. تنحنح ليلفت انتباهها.. نظرت له ثم للشارع.. سألها عن حالها هزت رأسها علامة الإيجاب.. تعرَّف عليها وعرف كل شيء عن حياتها.. أخبرته أنها مصابة بمرض ما وأنها أجرت عمليات عديدة على مدار سنة ونصف وهذه هي آخر عملية.. وبعدها تكون حرة نفسها.. لا أدوية ولا غرف عمليات.. شعر

بوجعها.. أراد أن يحتويها.. يحتضنها ولكن بأي صفة.. نظر لها ولم يتكلم.. تعرف عليها في خلال اليومين المتبقين له.. في اليوم الثالث ارتدى ملابسه.. واتصل مصطفى ليأتي لاصطحابه.. ذهب لها وأخبرها أنه سيغادر.. نظرت له نظرة تفتقد الحنين.. نظر لها بابتسامته المعهودة ثم قال:

-هوفَّر عليكي الحيرة دي.. إحنا لازم نتكلم تاني .

نظرت عند قدميها لا تدري ماذا تقول.. لكنه تابع:

-إديني رقم موبايلك عشان أكلمك وأعرف هتعملي العملية إمتى وابقى جنبك .

لم تتردد وأخذت هاتفه من يده وسجلت رقمها.. غادر مالك فغادرت معه حيوية المكان بالنسبه لها.. ظلا يتكلمان في التليفون يوميًا بالساعات قبل وبعد العمل.. ثم جاء اليوم المنشود الذي انتظرته هي منذ سنتين.. يوم آخر عمليه.. اتصلت به لتخبره بموعد العملية.. فجر يوم العملية كان ينتظر خارج المستشفى منتظرًا موعد الزيارة.. دخل فانتظر موعد العملية.. انتظر مع والدتها وعائلتها جميعًا في انتظار خروجها..

خرجت وسار وراءها ينظر للهفة عائلتها عليها.. اطمأن عليها من على بُعدٍ.. دخلت العناية المركزة.. اطمأن من الممرضة عليها وعلى حالتها وأخبرته أن هذه من أسهل العمليات التي أجرتها على مدار السنتين.. اطمأن قلبه وغادر حتى لا يثير الشك والريبة عند أحد.. أخذ يزورها كل يومين حتى خرجت.. مرت شهور على خروجها من المستشفى.. عادت لصحتها التي استردتها بعدما عادت للحياة مرة أخرى.. وجود مالك

بجانبها أضاف لحياتها رونقًا خاصًا.. أراد أن يعترف لها بما في قلبه.. أراد أن يقولها لها.. أنه بمجرد أن رآها تحرك قلبه نحوها.. كم كان يعشق مراقبتها والنظر إليها وهي نائمة.. بمقدار كرهه للمستشفى لما رآه فيها من ألم.. ولكنه أحبها لأنها أعطته الفرصة ليراقب الشخص الذي خطف قلبه وهو نائم.. وهو في عالم آخر لا يشبه عالمنا.. عالم كان يتمنى أن يزوره معها وهي نائمة تشبه الملائكة.. حتمًا هي وجدت في الأرض لتضيفها جمالًا ونعومة.. كان صوتها يزيل تعبه وهمومه ومسؤولياته. كانت على مشارف بدء عام دراسي جديد.. هو لا يريد تعطيلها ولكنه كان يريد أن يخبرها بحبه.. اتصل بها كعادته نظر لاسمها على شاشته.. قبل أن تجيب كان ينظم دقات قلبه وكأنه أول مرة يحادثها.. أتاه صوت أنفاسها في سمَّاعة الهاتف وبعدها أجابت:

-إنت مش لسه قافل من شوية؟!

-بطمن عليكي.. بلاش؟

-أنا كويسة متقلقش عليا.

-عايز أشوفك.

-نعم؟!

-عايز اكلمك في موضوع مهم ومش هينفع هنا في التليفون.

-إحنا اصحاب أه.. وماما عارفة أني بكلمك.. بس مش هترضى اني أنزل اشوفك.

-أنا ممكن اكلمها استأذنها.. أنا ميرضينيش تعملي حاجة من وراها.

-عايزني ليه يا مالك.. وبعدين انا بجهّز حاجاتي لأني هبدأ دراسة قريب.

-لما تيجي هتعرفي.. هكلم مامتك النهارده اأستأذنها وهستناكي بكرة في الكافيه اللي في الشارع اللي ورا المستشفى.. أوك.. سلام.

جلس يشاور نفسه ماذا يفعل ليقنع والدتها.. فوجد أنه بالصراحة يستطيع أن ينال ثقتها.. اتصل بها وأخبرها بكل ما في قلبه تجاه مريم، ولكنه قبل أن يعرف رأيها وردها عليه.. شرح لها ظروفه المادية والعائلية وأخبرها أن تخفي عن مريم أحداث هذه المكالمة لأنه يريد أن يخبرها بحبه بنفسه.. كأي أم مثالية اعترضت ولم توافق.. ردَّ مالك قائلًا لها:
-يا أمي انا مش هخرج معاها لوحدي.. أختي هتكون معايا.. وكمان هي بنت أصول وقالتلي انها مش هتعمل حاجة من وراكي وانا احترمت رغبتها وكلمت حضرتك.. كان ممكن نتقابل من غير عِلمك.. بس ولا هي ولا انا كنا هنوافق نعمل حاجة زي كده .

بعادته وأسلوبه المقنع أقنعها.. يملك من وسائل الجذب والإقناع الكثير.. وافقت على مضض ثم ذهبت لتعطي ابنتها الوصايا العشر بنبرة حادة:
-أنا معرفش هو عايزك في إيه .

-لو اخته مش موجودة متقعديش.

-متتأخريش.

-ميمسكش إيدك .

-الواد محترم بس برضو انتي خدي بالك .

لم تتركها إلا بعد تلقينها كل ما يمكنها أن تصبه في أذنيها من نصائح . كانت مريم تداري عن مالك وأمها فرحتها العارمة بهذا اللقاء.. فهي حقا

تفتقده.. كيف استطاعت ألا تراه كل هذه الفترة.. هذا الكائن النادر الوجود في مثل هذا الزمان.. اتصل بها صباح اليوم التالي ليؤكد عليها الموعد.. حضر قبل ميعاده.. اختار الطاولة المناسبة ليجلسا سويًا.. ونبه على هاجر بالرحيل بعد أول عشر دقائق.. بعدما اتفق مع مصطفى أن ينتظرهم بالخارج ليوصل أخته للبيت.. كان يريد الانفراد بها.. يخرج لها كل ما يدخره بين طيات قلبه.. يسأل نفسه دومًا.. كيف لهذا القلب الذي لم يتحرك أو ينجذب لأحد أن يكون مضطربًا هكذا منذ أول يوم رآها فيه.. دخلت مريم عليهما لتنير المكان بأسره بنورها.. قام هو ليجلسها.. سلمت على هاجر وتبادلتا القبلات المعتادة بين البنات.. لا يقل عن سبع عشرة قبلة في الدقيقة.. مرت عليه هذه الدقيقة كعامٍ كامل ملَّ فيه من عدد القبلات.. تبادلتا السؤال عن الأحوال.. وبعد ما يقل عن عشر دقائق استأذنت هاجر بحجة أمور هامة طرأت في المنزل لابد أن تذهب لها.. نظرت مريم لمالك نظرة لائمة، ولكنه أشاح بوجهه ليوصل هاجر للخارج.. عاد إليها مبتسمًا فتناست حركته هذه فابتسمت.. ثم قالت قبل أن يجلس:

-حركة صايعة أوي دي.. بس مش قديمة شوية.

-كنت عايز اكلمك في موضوع مهم ومش هينفع في التليفون وما صدقت ان أمك وافقت .

-عايز إيه يا مالك ؟!

-إحنا عرفنا بعض بالصدفة صح ؟

-أه صح.. وبقينا أصحاب جدعان أوي.

-طيب لو قولتلك إن من أول يوم وأنا بتعامل معاكي على أنك مش صديقة وبس.

قاطعته بنبرة يحفها التساؤل والغموض:

-يعني إيه يا مالك ؟!

أجابها بنبرته الحانية:

-يعني بحبك .

اهتزت الأرض من تحتها.. شعرت بالنور يتراقص من حولها.. ماذا قال.. والأهم من قوله ماذا حل بها بعد سماع هذه الكلمة.. التي طالما حلمت بها منذ صغرها، ولكنها لم تكن تتوقع أن مالك يحبها رغم اطلاعه على ظروف مرضها.. كانت تشعر أنها صداقة مصحوبة باهتمام بسبب مرضها لم تكن تتوقع أنه يحبها.. سقطت دمعة من عينها وأجابته:

-قبل ما أرد عليك عايزة أعرفك حاجة يمكن تفرق معاك وتخليك ترجع في كلامك .

-مالك بس في إيه.. ليه الدمعة دي؟!

-باختصار.. العمليات اللي عملتها أثرت بنسبة كبيرة أوي على الرحم.. واحتمال إني اخلّف صغير جدًا.. الدكتورة قالتلي انسي موضوع الخلفة دا لأني لو فكرت فيه هيكون مش قدامهم ساعة الولادة غير إنهم يا إما يضحوا بيا يا إما بالجنين دا لو قدر قلبي يستحمل أصلًا ألم الولادة.. وأمل إني أبقى أم ضعيف بالإضافة إن دا لازم يكون برة مصر بمبالغ

مالية ضخمة.. كل راجل في الدنيا نفسه يكون أب.. شايف ان انت ينفع تحب واحدة مش هتقدر تخليك أب في يوم من الأيام .

أجابها بثقة بعد ما أخذ يديها بين كفيه لما رآه من توتر ملحوظ عليها:
-انتي هتكوني بنتي.. نزلت على قلبها كقطعة ثلج باردة ولم تكن تتوقعها منه ولكنه أكمل:

إنتي مش عارفة انتي عملتي فيا إيه من يوم ما شُفتك.. ثم نظر لها بابتسامة حقيقية استطاعت أن تميز صدقها.. أزالت الإحراج الذي اجتاحها كأنثى بعد هذه الكلمات.. ثم قال مازحًا:

-مردتيش عليا يعني.. بقولك بحبك.

فاجأبته:

-كنت خايفة تحبني.

-مش رد مقنع دا على فكرة.. عايز اعرف.. شعورك من ناحيتي إيه .
-حبيت اهتمامك بيا.. خوفك عليا من أول يوم اتقابلنا فيه.. حنيتك اللي مكنتش بلاقيها غير فيك.. إنت ازاي كدة؟ !

كان يريد أن يمسك يدها ويحنو عليها، ولكنه منع نفسه ثم أكمل قائلًا:
-بقيت كدة من ساعة ما شُفتك.. مكنتش بعرف أبقى حنين غير على البت هاجر أختي وأمي.. بس إنتي حاجة تانية .

-ازاي يعني؟

-مش عارف بس أهو كدة وخلاص.

ضحكت تعقيبًا على كلامه.. ضحكة لاحظ فيها بريق عينيها.. لأول مرة يفهم كلمة سمعها من والدته منذ زمن "اللي عينيه تلمع وهو بيضحك.. يبقى بيضحك من قلبه.. يبقى بيضحك مع حد بيحبه "

ضحكا سويًّا.. شعر بالارتياح لردودها عليه.. شعرت بالأمان في حضرته . الحب يلغي كل ماهو خبيث، يداري عيوبنا.. يظهر لمن نحبهم حناننا وجنوننا.. الحب في حضرته تظهر الأسنان لآخرها.. نرى لمعة الأعين.. الحب هو لمن يعيشه حياة ومن افتقده فهو موت مؤقت في انتظار مغادرة الباقي من الروح لخالقها.. الحب متعة الحياة.. من استطاع إدخال الحب في حياته فلح.. ومن عاش بدون حب هلك.. وإن حاول إخفاء ذلك .

طلبت الرحيل فاستجاب لها.. أوصلها لبيتها.. اتصل بوالدتها وشكرها.. غادر لبيته ولأول مرة يشعر أن ابتسامته وجدت سبيلها لقلب خلقت من أجله.. عناؤه وتعبه.. تحمُّله للمسؤولية.. شعر أن الله يكافئه على تحمُّله وتعبه من صغره.. وصل البيت ليجد هاجر في انتظاره:

-عملت إيه قولي؟

لم يكن يسمعها.. حالة هيام غير طبيعية.. كان يعلم ما سيحدث، ولكنه اطمأن الآن بعدما وافقت هي ووالدتها.. نظر لأخته نظرة وجدت في عينيه سعادة لم ترَها من قبل ثم قال:

-قولتلها بحبك..

ابتسمت هاجر ابتسامة صافية سعيدة لما تراه على وجه أخيها .

-وهي قالتلك إيه؟!

استند بيده على "الكومودينو "ثم جلس على سريره:

-طلعِت كانت خايفة تحبني ولما طمنتها اعترفتلي هي كمان بإعجابها وحبها . انتهى من شرح ما حصل لأخته ثم غادرت بعد أن اطمأنت على أخيها.. اتصل بمريم وظل يهاتفها أكثر من ساعتين يتذكران سويًّا أيام المستشفى ونظراتهم التي باتت مفهومة الآن.. مرت أيام وشهور على مالك ومريم وحبهما كل يوم يزيد عن اليوم الذي يسبقه.. كانت من أحلى الأيام التي عاشها مالك.. كان لا يعطلها عن دراستها.. كان يراها يوميًا ويتحدث معها في الهاتف باستمرار.. قرأ الفاتحة مع والدتها ليكون كل شيء في النور.. كان يحب مريم حد الجنون .

* * *

ثم نظر مالك لها نظره يملؤها الأسى والحزن.. بل نظرة يملؤها الموت: -هي دي حكايتي من أول ما شُفت مريم لغاية ما قولتلها بحبك.. وكانت كل حاجة ماشية كويسة.. وافقت على كل حاجة ممكن تتخيلها.. بقيت ليها أب وأخ وحبيب وصديق.. استحملت أني أتحرم من نعمة الخلفة.. قُلت هي هتكون بنتي.. ومع ذلك باعتني.. عارفة ليه موجوع أوي كدة؟ عشان دايمًا مبنبقاش متوقعين الوجع من الناس اللي بنحبهم.. وعلى قد ما بنحب بتكون الوجيعة .

أردات أن تمسك يده لتطمئنه.. الدموع تملأ عينيها ولكنها صممت أن يكمل حديثه.. رجع بظهره للوراء ناظرًا في الفراغ وأخذ يلقي عليها كلمات الموت التي لم تكن تعلم أنه يحمل الكثير منها .

* * *

-وحشتيني..

أشاحت بوجهها عنه تجاه النيل الذي تعوَّدا أن يجلسا سويًّا برفقته نهاية كل أسبوع.. ولكنه مدَّ يده ليمسك يدها ويدير وجهها له معاودا الكلمة مرة أخرى "وحشتيني ."

ظل يتأمل الخجل في عينيها ويديها الصغيريتين.. لم يرِد من الدنيا سوى أن تكون زوجته وحلاله.. وبالفعل هو يعمل من أجل ذلك يعمل بوظفتين ليوفِّر في أقرب وقت المكان المناسب الذي يجمعهم سويًّا.. كان يوافقها على كل ما تريد.. كانت تقنعه بنعومتها.. يضعف أمام حبه لها.. كم هو قاسٍ ذلك الذي يسمى الحب عندما يجعلك تطأطئ رأسك حبًا لهم ثم لا يراعون ما قدمت لهم .

ردَّت هي قائلة:

-وانت كمان وحشتني أوي على فكرة.. أنا مكنتش متخيلة اني هحبك أوي كدة.

لم يجبها، ولكنه اكتفى بوضع قُبلة على يديها.. لتشرح لها عشقه.. لم تستطع أن تجيبه فهي أول مرة تشعر هذا الشعور.. معه حقًا تشعر كم هي جميلة.. تشعر بأنوثتها .

* * *

هربت دمعة من بحر الدموع المحجوز في عينيه وهو يحكي.. فأخذت هي يده ووضعت عليها قُبلة لتشعره بأنها بجانبه، ولكنها زادته وجعًا وضيقًا.. ماذنب هذه الأنثى التي تتألم بسببه.. نظر لها بحنوٍّ يشوبه القلق.. نظر

لعينيها التي ترقرقت بالدموع طلب منها أن يسكت لا يريد أن يكمل، ولكنها ألحَّت عليه.. كانت تعلم أنه إن تكلم سيرتاح.. ولكنه عكس الناس جميعًا إن تكلم يتعب أكثر وينبش الجرح من جديد.. لا يدري لِمَ يحكي لها ولِمَ هي بالذات.. ليست أول فتاة تشعر به وتطلب مساعدته.. ولكنه شعر بصدق مشاعرها.. أتاه صوت من بعيد:

-وهي عشان بتحبك وصادقة معاك تقوم تعمل فيها كدة.. إنت جربت الظلم.. بتظلمها معاك ليه؟

-أنا مظلمتهاش.

-لا ظلمتها وجعتها.. اهتمامها بيك بتقابله بإهمال.. حبها ليك بتقابله بوجع.. عارفك بعد ما تحكيلها هتسيبها تكمل لوحدها زي مانت هتكمل لوحدك .

-بس هي هتقدر تكمل.. معيشتهاش معايا في سراب وصحيتها على حقيقة بتوجع .

-لا هتكمل لوحدها أصلها حبتك بجد زي ما انت حبيت مريم .

-شُفت بقى جزاء اللي يحب بجد في الزمن دا .

-أنت بتدفعها تمن غلطة هي مرتكبتهاش .

-طب وانا غلطت في إيه؟ !

انتهى من جداله الداخلي ثم أكمل كلامه، ولكنه يشعر أنه يريد أن يحتضنها .

* * *

باقي من الزمن أقل من خمس دقائق على الموعد المحدد للقاء.. لم يكن يتأخر عليها إطلاقا.. ولكن هذه المرة تأخر متعمدًا ليرى رد فعلها.. هل ستنتظره أم لا.. ذهبت في الميعاد فلم تجده فجلست على المقعد الناظر للنيل مباشرة على حسب ما تعودت بحضرته.. حضر بعد موعده بنصف ساعة ولكنه لم يذهب إليها.. كان يحضر لها مفاجأة.

قبل الموعد بثلاثة أيام..

-انتي فين؟

-أنا لسه مخلَّصة ومروَّحة .

-طب استني أنا كمان هقفل واجي أروَّحك بعدين أروَّح .

-أوك متتاخرش.. سلام.

في الطريق لمنزل مريم مرت على محل ذهب لترى سلسلة في واجهة المحل استوقفها شكلها، ولكنها لم تنطق ولم تبين له أنه يعجبها.. فقط رأى ذلك في عينيها.. هي تعلم أنه يعمل عملًا إضافيًا من أجلها.. هي تعلم كم يعاني ليكونا معًا تحت سقف واحد في أقرب وقت.. لم تتكلم ولكنه شعر بها.. أوصلها وودعها.. وعاد يسأل عن ثمن هذه السلسلة.. وجد أن سعادتها أهم من أولويات كثيرة عنده.. اشتراها لها وطلب منها أن يخرجا سويًّا .

ثم ذهب لطفل صغير يجلس بجوار أبيه صاحب عربة البسبوسة:

-خُد ياحبيبي .

-بس ماتقولش يا حبيبي .

-خد ياض بدل ما ألطشلك .

-خلاص ياعم متزقش .

-هتاخد الاتنين جنيه دول ليك والعلبة الحمرا دي هتروح تديها للبنت اللي هناك دي وتمشي.. من غير ما تقول ولا كلمة ولو سألتك متردش، تعرف تعمل أخرس؟

-أه ياعم أعرف.. بس هات الاتنين جنيه الأول .

-خد.. بس عارف لو قُلت نص كلمة.. هعلقك من رجليك.. امشي . لم يكن هناك بديل لإقناع ذلك العفريت الصغير بالقيام بالمهمة سوى تصدير الوجه الخشب لأن طبيعة مالك الهادئة تجعل مثل هؤلاء الشياطين يستهزئون به.. غيَّر مكانه لأنها تعرف أن هذا الولد ابن صاحب العربة وستنظر هناك.. وقف في مكان لن تسطيع أن تراه.. راقب الطفل الصغير "عاطف "وهو يعطيها العلبة ولم ينتظر حتى تأخذها وهرب سريعًا.. التفتت حولها لترى من يراقبها.. لم تجد أحدًا.. نسمات باردة تدغدغ وجهها الملائكي.. قامت ووقفت بجانب السور وفتحت العلبة لتجد السلسلة التي أعجبتها.. وقبل أن تنطق وجدت من يضمها إليه:
-هو إنتي مش عارفة إن أحلامك أوامر ولا إيه يافندم..

كانت تضايقها هذه الكلمة لأنه يتعامل بها مع الأغراب عنه أو في العمل الرسمي .
نظرت له نظرة حادة بعد أن أمسكت أنفه بيدها:

-وانا مش قولتلك مبحبش الكلمة دي؟

لم تغادر يدها موضعها حتى قبَّلها من كفها.. فهي أنثاه.. حبيبته وابنته.. يجد فيها المأوى والحنان والسَّكِينة.. أغمضت عينيها لتشعر بأنفاسه

تنضم لنسمات الهواء البارد الذي يتخلل قسمات وجهها.. جلس بجانبها تربع ليكون مواجهًا لها.. كم يحب أن ينظر إليها وكم تحب بساطته وطفولته.. مدت يدها وأمسكت بنظارته ولبستها.. كانت تعرف أن هذا يضحكه فتضحك هي معه.. كانا يتصرفان وكأنهما واحد.. يشعر بها وتشعر هي به .

* * *

لم تستطع حور مقاومة فضولها أكثر من ذلك ومن وراء دموعها وسألته:
-ولما انتوا كنتوا حاجة واحدة كده وبتحبوا بعض كده سيبتها ليه؟!
ضحك بصوت خرج بأوجاعه جميعها.. ثم أجاب: عشان بحبها.

أراد أن يكمل ما بدأه.. ولكن الهاتف أصدر رنينًا.. أخرجه ليرى اسم هاجر على الشاشة قفل الخط عليها مرة ليجدها تعاود الاتصال مرة أخرى، ردَّ على مضض ليجد فتاة أخرى غير أخته على الهاتف منهارة وتخبره أن هاجر وقعت مغشيًا عليها وهي الآن في المستشفى.. بحركة لا إرادية أمسك بيدها وغادر مسرعًا المكان.. أشار لأول تاكسي وهي بجانبه تهدئ من روعة.. استطاع تنظيم الشهيق والزفير بصعوبة.. فهو يعلم أن أخته هي من أبقتها له الحياة.. رغم وجود حور ومصطفى بجانبه أيضًا يلازمانه.. اتصل بمصطفى أخبره ما حدث وطلب حضوره وأخبره أنه في الطريق إلى المستشفى بصحبة حور التي تضغط على نفسها دومًا لترضيه.. كم هو مؤلم أن تحب من يتفنن في وجعك.. ولكنه الحب.. هو أحب من أذاقته كأس الوجع.. وهي تحبه وتعلم أنه لا يستطيع ولكنها تحاول.. وصل ونزل مسرعًا.. هرول للداخل سأل في الاستعلامات على اسم أخته.. صعد الدور الرابع على قدميه لم يشعر أنه ترك حور وهي

تحاول اللحاق به.. دخل على أخته ليجد المحاليل بجوارها ومصطفى جالس على كرسي عند رأسها.. لأنه وصل إلى المستشفى أولًا لأنه يسكن بالقرب منها.. سأله ماذا حدث.. لم يكن عنده إجابة.. خرج للدكتور يسأله.. أجابه هبوط في الدورة الدموية نتيجة إرهاق شديد بدون تغذية.. ممكن تاخدوها الصبح أول ما نطمن عليها أختك بتدلع.. شكره مالك ودخل الغرفة محاولا إخفاء قلقه عليها:

-ينفع كده تقلقيني عليكي.. ولا بتشوفي غلاوتك عندي .

أجابته بنبرة حانية:

-أبدًا والله.. معرفش إيه اللي حصل أصلًا .

طلب مالك من مصطفى أن يوصل حور للمنزل لأن الوقت قد تأخر.. نظر له باستنكار.. ثم أخذه خارج الغرفة:

-إنت بتقول إيه ياعم أودي مين.. لا وديها أنت.. مانت عارف إنها عايزاك انت توصّلها .

لم يرد عليه ودخل أخبر هاجر أنه سيوصلها ويعود فورًا.. غادر قائلًا:
-خد بالك من هاجر يا مصطفى لغاية ما ارجع .

أجابه في هدوء:

-في عينيا متخافش .

نظرت له هاجر نظرة تشكره على المتاعب والمشاق التي تسببها له هي وأخوها.. تنظر لذلك الشاب الذي لا يقل رجولة وشهامة عن مالك.. مصطفى هو صاحب الشعر البني اللامع.. عين عسلية واسعة.. وجه دائري.. ليس بطويل ولكنه أطول منها قليلًا.. تحبه كأخيها.. بادلها النظرة

شعرت فيها شيئًا غريبًا عن كل مرة ينظر لها.. دائمًا ما يتلافى النظر إليها مباشرة، يحترم حرمة بيت مالك بشكل كبير.. ولكنه لم يجد لنفسه زوجة أو حبيبة أفضل منها.. تبادلا الكلام فبدأ هو بإلقاء اللوم عليها قائلًا:

-اللي حصل النهارده دا ميتكررش تاني .مفهوم؟

لأول مرة يقشعر بدنها من إلقائه اللوم عليها.. اليوم لا يعاتبها كأخ.. أجابته:

-والله اللي حصل.. كنت مع المهندس في الموقع وفجأة حصل اللي حصل.. وبعدين مالك طول النهار برا يا إما في الشغل يا في المحل وأنا مابين الشغل والبيت.. نظر لها ولم يتكلم وكأنه يريد أن يرسل لها رسالة بعينه.. ساد الصمت بينهما.. بينما مالك أيضًا لم يتكلم أثناء توصيله لحور.. عاد للمستشفى ليجد هاجر نائمة ومصطفى جالس بجوارها على كرسي صغير.. طلب منه أن يذهب ليستريح ولكنه رفض وظلا سويًّا بجوارها حتى الصباح.. مصطفى أصغر من مالك في السن بقليل.. المستوى المعيشي فوق المتوسط.. والده صاحب شركة سياحة ويساعده في إدارتها.. ذهبا بها للبيت وذهبت حور لزيارتها..

مرت الأيام رتيبة وفي يوم جاء مصطفى ليطلب يد هاجر من أخيها.. فوجئ مالك بهذا الطلب إلا أن مصطفى أوضح له أنه وجد فيها العروس الكفء والأخلاق الحميدة.. فهي تربية مالك ويعلم أصلها.. وأمه تحبها وهو أيضًا يكنّ لها المعَزَّة.. سألها مالك فوافقت فهو لا يخيِّر عن أخيها وكم كانت تتمنى أن تتزوج من شخص به مواصفات أخيها.. قرأ الفاتحة وحددا موعدًا للخطوبة.. اتصلت هاجر بحور تخبرها بهذا الخبر وتدعوها لحفل الخطوبة.. كانت حور تستغل أي فرصة ترى فيها مالك..

كانت تتعمد للذهاب عند هاجر في أيام إجازاتها من الكلية وتتفنن أيضًا في الأعذار والحجج لوالدتها لتتركها تذهب لها.. كانت تعلم أنها على خطأ أو ليست على صواب، ولكن قلبها هو الذي كان يقودها.. كانت تحبه وتعلم أنه لا يحبها.. كانت تحب فيه حبه لمريم.. كانت تريد أن تعوِّضه عن فقدانه لمريم ولم تستطع فتحاول أن تعوّضه فقدانه لأمه.. غريبة هي الدنيا تعطي ما نريد لمن لا يريده.. أخذت مريم قلب مالك وهي لا تريده.. أخبرتها أنها ستكون عندها قبل الميعاد لتهيئها وتزيّنها.. لم يكن لدى هاجر أصدقاء أو لم يتبقَ لها بعد التخرج أصدقاء.. مالت حور برأسها على السرير سافرت لعين مالك التي تريد أن تشبع منها.. سمعت صوت هاتفها قامت مسرعة تحسبه المتصل.. ظهر على الشاشة اسم سمر، أمسكت الهاتف لتجيب لأنها تفتقد الكلام معها، ردت حور:

-آلو..

-أهلًا بالكلبة اللي مبتسالش .

-والله غصب عني معلش .

-غصب عنك ولا تايهة في دوامة سي مالك.

-أه والله يا سمر انا تعبت.. مالك دا حكايته حكاية.. وجعلي قلبي .

-انتي كان مالك ومال الواد المعقد دا بس؟

-قولتلك 100مرة متشتميهوش .

-شكلك حبتيه بجد؟!

لم تجب ولكن صوت تنهيدتها أعطى سمر الجواب .

-حبتيه.. ووقعتي ومحدش سمى عليكي .

-ادعيلي والنبي يا سمر.. مالك طلع موجوع أوي.. ادعيلي أقدر أساعده.
-يا حور اللي زي مالك دا ندعيله ونعدي منقفش عشان نساعده.. هو نفسه مش عايز مساعدة من حد.. فاهماني يا حبيبتي .

-إدعيلي إنتي بس ومالكيش دعوة.

-حاضر يا حبيبتي.. لو احتاجتي أي حاجة ابقى كلميني علطول.

-إن شاء الله.. سلام إنتي بقى عشان عارفة إنك هتكلمي عبده.
-اسمه عبد الرحمن يا بت..

-ماشي يا ستي.. البشمهندس عبد الرحمن كمان.. سلام .

أغلقت سمر الخط وهي قلِقة على حور.. تريد أن تنصحها تريد أن تخرج هذا الكائن من عقلها ولكنها سرعان ما تناست كل هذا في حديثها مع حبيبها وتوأمها.. أخذت حور هاتفها تحت غطائها تنفرد به.. أتت بصورته على الشاشة.. الصورة التي أخذتها من هاجر.. احتضنته وهي تبكي.. ولا تدري أتبكي على ألمه أم على وجعها منه.. كم هو سعيد أنه أخيرًا سيطمئن على أخته التي تبقت له في الحياة.. اتصل بخالته يدعوها فهي من تبقت من عائلته.. بدا مترددًا.. هل يتصل بحور يدعوها أم يكتفي بدعوة أخته هاجر.. لا يعلم لم يهاتفها.. الوقت متأخر.. تجاهل عن هذا ودخل سريره لينام .
-متستاهلش منك كل دا يا مالك..

-والله حرام عليك..

-أنت اتظلمت مرة وعارف يعني إيه ظلم..

-متظلمهاش معاك.. خليها تفتكرلك كل حاجة حلوة..

-بلاش توجعها.. البت بتحبك باين حبها في عنيها.. عنيها فاضحاها . خلاص هكلمها.. كان هذا جوابه على صوت نفسه.. أخرج هاتفه.. ثم رقمها.. ثم ضغط على زر الاتصال.. أخذ قرارًا أن يكون لطيفًا جدًا في هذه المكالمة.. يدري أن حديثه معها آخر مرة كان ينزل عليها كالسهام المتسابقة لتشق طريقها في صدرها.. وقبل أن يسمع صوت الجرس:
-آلو.. ازيك يا مالك ؟

-إنتي قاعدة على الزرار ولا إيه .

مسحت دموعها وابتسمت لأن صوته يبدو بخير.. قلبها يطمئن لاطمئنانها عليه.. تارة تلعن الحب الذي فعل بمالك كل هذا وأوقعها في طريقه لتجد المشقة في التعامل معه.. وتارة تحمد الله لأنها تشعر بالراحة عندما تجد في صوته نبرة الارتياح..

-لا خالص كنت بلعب في الموبايل .

طيب يا ستي.. إنتي معزومة على خطوبة هاجر بقى.. أنا عارف إنها عزمتك بس قُلت أعزمك بنفسي.. عقبالك .

ابتسمت هذه المرة حزنًا على حالهما.. أصبحت مرتبطة به حد الموت.. محدثة نفسها كيف لها أن تُزَف لغيره.. وهي تعلم أنه لن يزف لغيرها وهي زُفَّت بالفعل لغيره وهو قرر أن يظل هكذا .

-طبعًا هاجي ومن بدري كمان.. هاجر دي أختي.. عقبالك يا مالك. صمت لم يجبها.. ولكنها تخيلت وجهه وهو مشمئز لسماع هذه الكلمة.. أردفت قائلة:

-إنت عامل إيه دلوقتي يا مالك ؟

-أنا كويس الحمد لله.. اعملي حسابك تعرفي البيت عندك انك هتتاخري لأنك هتخرجي معانا بكرة.. مينفعش اسيب الواد ده يخرج مع اختي لوحدهم .

-إزاي يعني.. دول هيبقوا مخطوبين يا مالك حرام عليك سيبهم يخرجوا ويتكلموا براحتهم.

أجابها بنبرة مازحة:

-حُرِمت عليكي عيشتك انتي وهما.. أصلًا أنا كنت عايز ارفض الجوازة دي..

بعد كدة لما يتجوزا واتصل بيه أقوله:

إنت فين يقولي مع أختك..

بتعمل إيه باكل أنا وأختك..

وانا معرفش أرد عليه بقى ماهي مراته

ضحكت هي على كلامه فضحك هو لضحكها.. يعلم أنها تعاني كثيرًا منه.. يعلم أيضًا أنها لن تتحمل وجعه.. يعلم أنه سيأتي يومٌ وتنفجر فيه.. صراحة لا يعلم لماذا تتحمله، أخبرها أنهم في انتظارها مبكرًا.. أغلق الخط.. وضع الهاتف بجانبه.. نظر نظرة طويلة للسقف.. لم يجد فيه لأول مرة شيئًا.. أعطى السقف ظهره ونام .

***   *   ***

وتذكَّر دائمًا ألا تتذكر.. ففي الذِّكرى يسكن الوجع.

(7)

استيقظ مالك على رنين هاتفه.. نظر في الشاشة وقفز في مكانه.. حتى إنه لم يجب على التليفون، دخل الحمَّام وخرج مسرعًا على غير عادته.. صلى المغرب في أقل من دقيقتين.. ارتدى ملابسه ثم نزل مسرعًا.. أمسك بهاتفه واتصل بها:

-أنا عشر دقايق وهكون عندك .

-كنت عارفة أن هتروح عليك نومة.. أنت فين بالظبط .

-أنا في العربية وداخل عليكي اهوه .

-في العربية.. أومال بتنهج ليه.. إنت نازل على السلم؟!

-أه.. لا.. بصي انا والله مش هتأخر جاي علطول .

-أنا مستنياك في المكان اللي بنقعد فيه علطول.. متتأخرش .

-حاضر يا حبيبتي.. سلام .

مرت ربع ساعة وهذه أول مرة يتأخر عليها.. وصل ليجدها جالسة في مكانها المعتاد.. ذهب وجلس بجوارها ولم ينطق.. نظر لها نظرة طفولية يستعطفها.. ثم فجأة تغيَّر شكله ورفع حاجبه:

-أنا مش قولتلك متلبسيش الطقم دا تاني.. إنتي بتستعميني ولا عشان انا لابس نضارة يعني .

ضحكت هي ضحكة هيستيرية علا صوتها فيها أخذت نظارته من على وجهه ثم قالت:

-كدة تمام صح..

-هاتي يابت النضارة إنتي يومك مش فايت أصلًا ومفيش درة مشوي ولا بليلة.

ألبسته نظارته وتعمدت أن تلامس وجهه.. اقشعر بدنه ونسى سبب ضيقه ثم أخبرها:

-أنا مش عقلية متخلفة.. أنا بس بغير عليكي.. متلبسيهاش تاني عشان المرة الجاية هزعل بجد.. ثم ضربها ضربة خفيفة على جبينها ليداعبها.. كم يعشق أن يضربها بحنية كابنته.. فهو يعلم أنها ستكون له ابنته وزوجته وكل ما له في الدنيا.. أمسكت شفتها العلوية بمقدمة أسنانها ثم رفعت حاجبها وأغمضت عينيها.. لتظهر حزينة في شكل ملائكي مُضحك.. استغل الفرصة ثم ضمها لحضنه ووضع قُبلة على جبينها ثم تأسف لها عمَّا بدرَ منه من خطأ فادح في حقها.. وضعت رأسها على موضع قلبه وأخبرته أنها تعلم حقًا أنها هنا.. ولن تكون الأخطاء هي سبب خروجها منه.. فهي ستدفن معه عند توقفه.. يعلم ما الذي يدور بداخله تجاهها..

هذه الأنثى التي ملكته من أول يوم رآها ترتدي القميص الخاص بالمستشفى هذا الرداء الواسع الذي زادها جمالًا على جمالها .

* * *

أيقظته هاجر ليذهب ليؤكد حجز الكوافير.. لم يجبها نظر فقط لها من على سريره ثم قال:

-كلمي البيه بتاعك خليه يأكد الحجز.. أومال هيبقى خطيبك كده بالكلام.. لازم يعرف ان الجواز مش بالساهل .

جلست هي بجواره ثم نظرت له بحنوٍ، تذكَّر فيها والدته.. قبل أن يخبرها أن تقرأ الفاتحة لها.. بدأت هي في الكلام:

-بص بقى يا عم مالك.. أنا وافقت على مصطفى لأنه ميتخيرش عنك . رفع حاجبه معترضًا على كلامها بينما لم يتكلم.. أكملت هي: -أنا عارفة انك عايز تخلص مني عشان قلقان عليا.. بس انا كمان قلقانة عليك.. عايزة افرح بيك.. ولاقيتلك بنت الحلال بس انت ولا انت هنا. ظهرت على وجهه علامات الغضب من الكلام وأراد أن يتكلم، ولكنها لم تعطه فرصة:

-ماهو ماتحاولش تقنعني أنك مش حاسس بالغلبانة اللي قاعدة برا من صباحية ربنا.. المفروض أن النهارده خطوبتي وكل كلامها عنك.. أنا عمري ما شُفتك بالقسوة دي يا مالك.

نكس رأسه أرضًا يعلم أن هذه القسوة جديدة عليه، لم يكن متبلد المشاعر هكذا.. أكملت هي:

-أنا مش مدياها أمل عشان أنا الصراحة مش ضامناك.. لكن أنت بعد الخطوبة لازم تاخد قرار.. يا هتكمل مع البنت دي.. يا إما تواجهها بقرارك وتبعدها عنك بأي شكل.. عشان اللي بيحصلها دا حرام.. ولم تعطِه فرصة ليرد عليها ولو بكلمة.. وقبل أن تخرج من الغرفة:

-البس حاجة عشان هي قاعدة في الصالة متخرجش كدة .

جلس القرفصاء على السرير ودفن وجهه بين يديه يفكر في حياته وفي حياة هذه المسكينة التي تعلقت به.. هو لم يعطها أملًا ولم يكن يجاريها في أفعالها.. كان حازمًا معها لأبعد الحدود.. كلام أخته حرك مشاعره الساكنة.. لم تتحرك تجاهها ولكنها تحركت من الركود.. حتى وإن قرر أن يأخذ قرارًا.. سرعان ما تذكر أن لديه يومًا طويلًا.. أخذ نفسًا عميقًا.. وقف أمام المرآة.. لم يعجبه منظره.. يحتاج إعادة هيكلة.. سيذهب للحلاق ليعيد تهذيب لحيته ويهندمها.. وهو في طريقه يترك البدلة عند المكوجي.. اتصل بخالته ليجدها في الطريق.. اتصل بعريس الغفلة ليجده في انتظاره عند الحلاق.. استيقظ من أحلامه وهو أمام مرآته ليجدها تقف على باب الغرفة تنظر له.. لن تحتاج للكلام فنظراتها تكفي.. ضحكت هي على منظره.. يرتدي بنطلون ترينج وفانلة حمالات.. تبعت ضحكاتها قائلة:

-يلا عشان تفطر معانا عشان هننزل انا وهاجر نروح الكوافير.. كانت بتقول انك هتفطر لوحدك بس انا قولت لأ هتفطر معانا .

تناول قميصه من على السرير في إحراج.. ليس لأنه يرتدي "فانلة حمالات".. بل لمنظر الغرفة التي تشبه الخيمة.. ارتدى قميصة وهو يقول بنبرة مازحة:

-إمشي اطلعي برا.. أنا جاي وراكي أهو.. تذكر أن اليوم لابد أن يكون يوم فرح ولا يريد أن يضايقها بكلماته كالعادة.. خرجت من الغرفة فلحقها

وجلس ليتناول الإفطار وكعادته بدأ السخرية المعتادة من الطعام.. ولكنه صعق هذه المرة بعد أن قال:

-البيض مش مستوي .

-الفول ناقص ملح .

-البطاطس مش متحمرة كويس .

-بتأكّلينا عك زي كل يوم .

نظرت له هاجر في حزم:

- حور اللي عاملة الفطار.. دوق كده تاني يمكن تغيَّر رأيك .

بدا عليه القلق والإحراج ثم أخبرها أنه لم يأكل أشهى من هذا الطعام.. وإنما كان يمارس الطقوس اليومية مع أخته.. انتهوا من الإفطار وغادرت هي مع هاجر وجلس هو مع نفسه قليلًا قبل أن ينزل الشارع ويبدأ اليوم الطويل.. ذهب للمحل، علَّق عليه لوحة مكتوب فيها "مغلق اليوم.. خطوبة أختي.. عقبال عندكوا."

رغم وجعه المستمر.. لكنه دومًا كان يملك روح الدعابة لا يريد أن يشعر به أحد.. كان مبتسمًا دومًا في وجه الناس.. مرَّ على أصحاب المحلات جيرانه في المنطقة ودعاهم جميعًا.. استوقفته امرأة كبيرة في السن يبدو عليها الإعياء طالبة منه أن يحمل عليها أكياسها.. ربت على يدها وحملهم عنها بعد أن أقنعها أن طريقهما واحد.. هي فقط كانت تريده أن يحملهم عليها وليس عنها.. صمم هو رغم أن طريقهما مختلف.. لم يستطع أن

يراها تحمل هذه الأشياء وحدها.. يعلم أنه سيتأخر ومن الممكن ذلك أن يسبب ذلك مشكلة.. ولكن..

هو يمشي في هذه الحياة بمبدأ "اعمل خير لحد متعرفوش.. ربنا يبعتلك فرحة متتوقعهاش."

سار معها حتى وصلت لباب المنزل.. لم يتركها وصعد معها للدور الرابع حاملًا أكياس الخضار.. فتحت الباب وصممت أن يدخل ليستريح:

-خش يا ابني اشرب حاجة واستريح وبعدين انزل .

نظر لها بابتسامة لأنه للحظة وجد بها حنان لم يشعر بها بعد وفاة والدته.. شكرها ثم سألها هل تريد أن يدخلهم في المطبخ أم يضعهم على السفرة.. أجابته هي:

-خليهم عندك.. واقعد.. والله ما هتمشي غير لما تشرب حاجة.

ضحك ليمينها عليه.. مثلما كانت تفعل والدته.. جلس وهو ينظر للمكان.. ليست وقاحة بل يريد أن يرى المكان الذي تقطن فيه هذه السيدة.. وجد صورة تجمعها مع فتاة شابة.. خرجت عليه لتخبره أنها ابنتها وتزوجت في القاهرة وتسأل عليها من وقت لآخر وهي أرملة.. علم أنها تسكن بمفردها وليس لها أقارب وتعيش على معاش زوجها.. يكفيها ويفيض:

-كان ظابط في الجيش الله يرحمه.. مات على الحدود.. فلوسه جوّزِت بنتي وانا عايشة مرتاحة من بعده والله يابني.. سقطت دمعة منها عند تذكُّرها الوضع الموجع.. تذكرت أنها كانت تريد أن تنجب ولدًا يكون بجانبها في مثل هذه الأيام.. رأى ذلك في عينيها.. قام أخذ منها الطبق الذي يحمل

كوب العصير.. جلس وتحدث قليلًا عن أخبارها وأنه سيزورها من حين لآخر.. قام وصافحها أخيرًا وهمَّ بالرحيل تذكر أنها ستفرح بدعوته عاد إليها ثم قال:

-أنا خطوبة اختي النهارة بالليل إن شاء الله.. وانتي معزومة.. ياريت تيجي .

ثم كتب لها العنوان بالتفصيل في ورقة تركها.. استأذن وغادر مسرعًا ليكمل يومه.. وصل لمصطفى ليجده انتهى من الحلاقة.. جلس مكانه وبدأت رحلة العذاب الأسبوعية.. لم يمر من الوقت الكثير وغادر مصطفى ومالك المحل كل منها لبيته ليجهز للحفل الساهر.. أخذ مالك بدلته في طريقه واستقبل خالته وذهب بها على الكوافير.. ثم غادر لبيته.. لا يستطيع أن يتوقف عن التفكير بها.. هي التي كان يريدها أن تكون بجانبه في يوم كهذا.. سرعان ما انخرط في لبس بدلته وأغفل عن قصد التفكير في هذا الموضوع.. تلقَّى اتصالًا هاتفيًا أخرج الهاتف.. ليجد اسم مصطفى على الشاشة.. ضغط زِر الرد:

-عايز إيه يابني؟!

-احنا كلنا قُدَّام الكوافير إنت فين ياعم.. إنزل بسرعة وتعالى .

-بتهزر.. هي الساعة كام؟

-داخلة على 7ياعم .

-أوك خلاص انا جاي في الطريق .

انتهى من تصفيف شعره ونزل مسرعًا.. اليوم هو الخميس.. يوم الزحام الفظيع على مستوى الجمهورية.. استوقف تاكسي حتى يصل في الميعاد وبالفعل لم يتأخر مالك على أخته وبدأت الليلة به.. أقاموا الحفل

الساهر واستقبل هو الضيوف رقص فيها مع أخته ومصطفى على أغاني الـ"DJ".. ضحك معهم من قلبه لأنه تدريجيًا بدأ يطمئن على أخته.. وصى مصطفى عليها كثيرًا:

-إنت عارف لو اشتكت منك في يوم من الأيام.. هنفخك .

أجاب مصطفى وسط صخب السماعات:

-مقدرش ازعّلها أصلًا يابني.. دي حبيبتي .

نظر له مالك نظرة مريبة لكنه لم يستطع أن يناوله لكمة أو ضربة لأنه يتكلم عن خطيبته وليست أخته فقط.. ضحكا سويًّا وألبس مصطفى هاجر الدبلة.. وجد الفرحة في أعين الجميع.

مصطفى سعيد بهاجر وأنها ستصبح زوجته وأمًا لأطفاله.. كم يكون الرجل في قمة سعادته عندما يختار الشخص الصحيح في الوقت المناسب.. مصطفى لم يرهق قلبه في حب ليس من نصيبه.. يعلم أنه يحبها حبًّا أخويًا وأن الحب الآخر سيأتي حتمًا لا مفر منه.. لذا فهو يحقد عليه لأنه نال ما يريد.. فتاة عرف أصلها راقب تربيتها جيدًا .

-هاجر سعيدة بخطيبها وزوجها المستقبلي.. وبالفستان وأنه ملائم لها.. سعيدة بوجودها في الكوشة أمام أخيها.. تعرف أنه تعب كثيرًا لتجلس هي مطمئنة في هذا المكان .

والد مصطفى ووالدته سعيدان لأنهما اطمئنا على ابنهما وعلى اختياره .

والدته سعيدة لأنها اطمأنت على ابنة أختها بعد وفاتها.

حور سعيدة فقط لأنها ترى مالك يضحك اليوم من قلبه.. يضحك مع ابنته وأخته لأنه أخيرًا أودعها في يدٍ أمينة.. يد صديق عمره –مصطفى-. فوجئ بالسيدة العجوز تحضر للقاعة وتسلِّم عليه وتبارك له ولأخته.. شكرها وكان سعيدًا بوجودها.. رغم وجود خالته معه إلا أنه شعر بوجود والدته عندما أتت هذه السيدة.. أجلسها بجانب خالته وأحضر لها شيئًا تأكله من البوفيه .

انتهوا جميعًا من مباركة العريس والعروسة.. طلب العريس أن ينفرد بالعروس.. ظهر له مالك من بين المعازيم.. أمسكه من يده ثم قال:

-رايح فين ياض.. إنت عبيط هتخرج مع اختي بالليل كدة.

رفع مصطفى حاجبه في استغراب:

-ياعم هو انا خارج معاها من وراك وبعدين دي بقت خطيبتي خلاص.. سيبني بقى أخد فرصتي وأعبر عن مشاعري بقى يا عم.. مسك برسغه وقربه له ثم همس له في أذنه:

-وبعدين انا عازمك ياعم انت وحور هتخرجوا معانا.. عشان متقولش استفردت باختك بس.. منها تبقى معانا.. ومنهى تطيِّب خاطر الغلبانة دي بكلمتين حرام عليك .

نظر له مالك نظرة فرح به وبأخته.. ثم همس له هو الآخر:

-ماشي ياعم.. الليله ليلتك بقى .

ودَّع المعازيم وأصرت خالته أن تذهب لتستقل القطار العائد للقاهرة ولم يستطع أن يمنعها.. أوصلوها في الطريق أولًا للمحطة واطمأن عليها

حتى انطلق القطار.. وصمم مالك أن يذهبوا ليجلسوا في مكان هادئ بجانب البحر.. رحب الجميع بالفكرة واومأت حور برأسها موافقة على أي قرار يصدر من مالك.. كان مصطفى قد استأجر سيارة من أول اليوم.. ذهبوا بها للمكان المطلوب وجلسوا سويًّا.. وبدأ الهزار والكلام بينهم جميعًا.. يتهامزون ويتغامزون.. طوال اليوم من أوله حتى الآن تنظر حور لمالك نظرات تأمل.. كم هو صعب على أنثى أن تجد الشخص الصحيح في الوقت الغير صحيح بالنسبة له.. يصبح الرجل كالتجويف.. لا يوجد بداخله شيء يمنحه.. لم تكن تعلم هي هذه الحقيقة.. كانت كعادة الجميع تنظر لنصف الكوب الممتلئ.. وسط الحديث طلب مصطفى أن ينفرد بهاجر قائلًا:

-سيبني بقى اقعد مع البت شوية ياعم.. واقعد انت قصادي ولو لمستها تعالى اعمل اللي انت عايزة.. قال مصطفى هذه العبارة ساخرًا.

-أنا واثق في أاختي قبل ما اثق فيك.. عامة احنا جنبكوا هنا لو احتاجتوا حاجة .

أخذ حور من يدها وجلس على المقاعد المجاورة.. هي تتأمل وجهه.. تحفر في ذاكرتها تلك الملامح.. وهو يتألم لأن له ذكريات كثيره هنا.. بدأ الكلام بينهما عن فرحته بأخته واطمئنانه عليها.. كانت تتابع حركات أصابعه وشفتيه.. تريد أن تخبره صراحة أنها تعشقه.. هي تعلم أنه يعلم ذلك ولكنها تريد أن تلزمه بها.. اتصلت بوالدتها تخبرها أين هي ومع من.. أخبرتها أيضًا أن هاجر وأخاها سوف يوصلانها للبيت.. جلست وهي مطمئنة.. كان بداخلها كلام كثير تريد أن تخبره به.. سرعان ما بدأ هو أن

يوصفها بأنها صديقة وفيَّة لم تترك هاجر طوال اليوم.. نظرت هي في الأرض تريد أن تخبره أنها اليوم هنا من أجله هو .

تريد أن تكون بين راحتيه وتخبره أنها ترتاح بينهما.. شكرها على اهتمامها.. فردت بابتسامة.. ساد الصمت بينهما لدقائق مرت عليها سنين.. ومرت عليه يتذكر أيام مضت في هذا المكان كان يجلس بجوار حبيبته.. كانت تشعر أنها تريد أن تمسك يده تلمسها.. تقبّلها.. نظرت لهاجر لتجدها مبتسمة من قلبها.. انتبهوا جميعًا لصوت موال دغدغ عواطفهم جميعًا .

أخذ حور من يدها وذهب بها لمصطفى وهاجر وأخذوا جميعًا يرددون وراء الأغنية:

قالوا تسلي عن المحبوب.. قلت بمن؟؟

كيف التسلي؟؟؟ وفي الأحشاء نيرانِ..

إن التسلي حرام في مذاهبنا... وكيف أرضى بكفر بعد إيمانِ.

فشارب الخمر يصحو بعد سكرته... وشارب الحب طول العمر سكراان.

كانت تعلم هي أنه مازال سكران بحبها ولم ولن يفيق منه ولكنها تحاول.. تعرف أن بداخله حبًّا وحنية تحتاجها.. تريد أن يجتاحها بحنانه وحبه.. لكنه سكران بحب لم يفق منه بعد..

كانت تنظر لعينيه وهو يتمم بالكلمات ترى فيهما لمعة حنين للماضي.. كيف لرجل أن يحن لماضٍ قاسٍ هكذا إن لم يكن حب بكل طاقته ولم يتبقَ له سوى الذكريات.. رجعت هي لم تجد لها أي ذكريات سوى معه

هو.. يوم القطار.. ورده المستفز عليها لم تكن تعلم أن الحب سيلقي بها في دوامته مع هذا الشاب الجريح.

نظرت له نظرة طفولية بريئة.. شعر بها للحظة أنها ابنته.. ثم قالت:

-أنا عايزة أيس كريم .

نظر لها متعجبًا وكأنه لم يسمع ما قالته للتو.. وقفت هي متجاهلة أي ردود أفعال ثم قالت:

-إيه مسمعتنيش.. أنا عايزة أيس كريم دلوقتي حالًا.. ماليش دعوة.

لم يعتَد أن يرفض طلبًا لأحد.. خاصة أنه يعلم مشاعرها تجاهه.. وقف ينظر حوله ليرى أي سوبر ماركت فاتح في هذا الوقت ليحضر لها ما تريد.. استأذنها بعدما سأل مصطفى وهاجر وأخبراه أنهما سيأكلان معهما.. سار هو بمحازاة الطريق يبحث بعينيه من تحت النظارة على أي مكان يبتاع منه الأيس كريم.. كانت تجلس هي تفكر في مجلدها الفارغ من الذكريات وتريد أن تملأه بسطور فريدة من نوعها.. بكتابة متمرِّسة لكاتب عشقته هي بكل تفاصيله.. استغل مصطفى الفرصة وقرب قليلًا من هاجر ولكنها سرعان ما رفعت حاجبها:

-أنت رايح فين.. أنا بقول عليك محترم زي مالك.

نظر لها في استنكار ثم اقترب منها أكثر وتقرب من أذنها ثم قال:

-يابت بحبك.. وبعدين بقرَّب منك يمكن تحسي بقلبي اللي عايز يخرج من مكانه عشان يقولك أنه ما صدق يلاقيكي.. عارفة يا هاجر..

قاطعته هي بحزم وراءه حبٌّ كبيرٌ له لأنها تثق به كثيرًا:

-طب ابعد شوية عشان محدش يفهمنا غلط.. أنا واثقة فيك والله بس الناس مش هتفهم دا .

رجع هو قليلا بعد ما أدرك صحة كلامها.. لم يكن يحسبها بهذه الطريقة كان يريد أن يقترب منها وحسب.. كان يريدها أن تضع يدها على صدره لتشعر بخفقان قلبه.. كانت تراقبهما حور وتحقد عليهما.. كانت تتمنى أن تجلس هي ومالك هذه الجلسة.. بدأ مصطفى يشرح لها حبه ويتذكران سويًّا مواقف مضت لم يكن يصدق أنها اليوم خطيبته.. أخبرته أنها قلِقة على مالك شاركها هو الرأي وطلب منها أن يحاولا إقناعه بتغيير رأيه في الزواج عمومًا لأنه اتخذ قرار من بعد انتهاء علاقته بمريم أنه سوف يكمل وحيدًا.. نظرت هي لحور نظرة حنو ثم أكملت قائلة لمصطفى:

-والله يا مصطفى أنا ما صعبان عليا قد البنت دي.. بتحبه بجد من قلبها وهو عارف دا .

بس على رأي مالك هي مش هتكون قد وجعه.. البنت بتحاول معاه بكل الطرق عشان تخرَّجه من اللي هو فيه ومع ذلك هو رافض.. تابع مصطفى ليكمل كلامها:

-ربنا أصلًا يا بنتي باعتهاله عشان تغيَّر حياته وهو رافض.. طبعًا إنتي عرفتي منها هما أول مرة اتقابلوا ازاي وايه اللي حصل بعد كده .لم يكمل هو حديثه حتى ضربته ضربة على كتفه براحة يديها.. ثم نهرته قائلة:
-تعالالي هنا.. وأنت ازاي تعرف دا منه ومتقوليش.. هاه.. ماشي أنا هوريك وأعلمك ازاي تخبي عليا أي حاجة بعد كدة.. مثَّل هو دور المتألم من الضربة التي وُجِّهَت له من يد صغيرة رقيقة لا تستطيع أن تؤلم نملة حتى ولكن ليحرك مشاعرها ثم قال:

-آه كتفي.. كده يا هاجر بتخبطيني أنا.. ماشي يا حبيبتي.. عامة أخوكي أصلًا كان هيحكيلك بس هو خاف من زنك لأنه كان شايف أن الموضوع صدفة وراحت لحالها.. وبعدين كمان أنا مقدرش أطلَّع سره لأي حد حتى لو كانت مراتي.

نظرت هي أرضًا شعرت بالخجل لسماعها هذه الكلمة.. مرت عشر دقائق أو أكثر ولم يعد مالك.. شعرت حور بالقلق فقاطعت حديثهما قائلة:
-ما تقوم يا مصطفى تشوف مالك مجاش ليه.. كل دا بيجيب أيس كريم .
هزَّ مصطفى رأسه موافقًا كلامها ثم قام لينظر حوله لم يجده.. أخرج هاتفه ثم اتصل به لم يرد.. كان مالك عائدًا بالأيس كريم في يده ولا يستطيع أن يُخرِج الهاتف ليجيب.. أسرع خطاه ليطمئنهم عليه.. أشار لهم من بعيد بعد أن رآه مصطفى.. همَّت حور لمقابلته وجلس مصطفى يكمل حديثه مع هاجر وبدأ يغازلها.. وقفت حور على الجانب الآخر من الطريق وبدأ مالك يعبر الطريق وفي أقل من الثانية ظهرت سيارة من الظلام أصابته ورمته أرضًا ولاذت بالفرار.. سمع مصطفى صوت صراخ حور هرول من مكانه ليرى صديقه ملقى على الأرض فاقد الوعي.. سريعًا وضعه في السيارة في الكنبة الخلفية واضعًا رأسه على فخذها.. وتنهال دموعها عليه.. وهاجر بجانب مصطفى تدعوه أن يسرع لتطمئن على أخيها.. مر مصطفى بين السيارات سريعًا.. كانت حور تحتضن رأسه غير مباليه أحد كل ماتريده أن تطمئن على حبيبها.. أخرجت هاتفها وهي تبكي.. حكت لوالدتها ما حدث وأخبرتها أنها ذاهبة مع هاجر للمستشفى .

* * *

يقف مالك على رصيف الجهة الأخرى من الطريق لا يرى أمامه سوى ضوء أبيض في السماء يرسم بشعاعه حياة قديمة يريد أن يمسكها بيده.. حاول أن يعبر الطريق ليلمسها.. ولكن أردَّته السيارة أرضًا ولم يستطع أن يعيش مع حاضره ولا أن يلمس ماضيه .

* * *

وصل مصطفى بصديقه إلى المستشفى، نزل سريعًا لقسم الاستقبال وأحضر العربة النقالة ووضع صديقه عليها.. أخبرت الممرضة الدكتور النوباتجي بسرعة.. مرورا بالطرقة الموصلة للاستقبال.. مالك تحت أشعة النيون القوية لا يدري بشيء.. دخل مصطفى مع صديقه الغرفة وظلت هاجر في أحضان حور بالخارج تبكي وتنوح على أخيها.. بينما حور تبكي حرقًا على حبيبها الذي تعلم جيدًا أنه الآن تدور في رأسه فتاة غيرها.. مرت ربع ساعة عليهم تذوَّق كل منهم الموت جرعات قلقًا وخوفًا على مالك.. طمأن الدكتور مصطفى على صديقه.. يوجد كسر في القدم اليمنى.. والإغماء نتيجة الضربة المفاجئة والسقوط على الأرض.. يحتاجون إلى تجبيس الساق وعمل أشعة في الغد ليطمئن قلبهم.. أخبره مصطفى أن يفعل اللازم وهو سيخرج ليطمئن أخته.. خرج مصطفى من الغرفة ليجد حور تجلس على الكرسي البلاستيكي وبجوارها هاجر تركن برأسها على كتفها والدموع تنساب منها.. هرولت عليه تسأله عن أخيها.. ربت على كتفها وقبَّل رأسها ثم قال:

-أخوكي مفهوش أي حاجة وحشة.. هو بس رجله اتكسرت من الخبطة هنجبسهاله وخلاص.. اهدي بقى عشان خاطري.. أنا مش قادر أشوفك

كده.. نظر لحور ليجدها متماسكة قليلًا عن هاجر.. يعلم جيدًا أنها منهارة من الداخل.. أجلس هاجر بجانب حور وعاد للداخل.. سحب كرسيًا وجلس بجانب الدكتور وهو يجبس لمالك الجزء المكسور.. نصح الدكتور بعدم إعطائه أي حقن إلا بعد إتمام التجبيس ليفيق بعد إنهاء كل شيء.. وافقه مصطفى على ذلك القرار.. برغم أنهما صديقان إلا أن مصطفى دومًا في هذه الأحيان يقوم بدور الأب.. مالك صديق وعِشرة عمر لا يستطيع أي شيء أن يذيب هذه الصداقة.. انتهى الدكتور وأعطاه الحقنة وربت على كتف مصطفى قبل أن يخرج ثم قال:

-ضروري نعمله أشعة بكرة.. الإغماء دا مش مطمِّني.. لازم الأشعة.
نظر له مصطفى ومسك رسغه قبل أن يخرج ثم قال:

-طب ما نعملها دلوقتي يا دكتور عشان ننجز ونطمن.

ربت على كتفه مرة أخرى:

-لا بكرة.. عشان لو ظهر حاجة نعرفها.. متقلقش أنا نوباتجية النهارده ولو حصل حاجة تعالالي أو ابعتلي الممرضة.

بدأ مالك يفيق من الصدمة ليجد ألمًا عظيمًا في ساقه.. لم يستطع أن يحركها.. تحرك مصطفى نحوه يسنده.. علم مالك أن ساقه جبست.. نظر حوله ليجد نفسه في غرفة مستشفى بها سرير واحد لم يتكلم عدله مصطفى حتى أجلسه:

-في إيه يا عم مالك.. إيه اللي حصل وازاي مخدتش بالك من العربية.. معقولة دا.. عديت ازاي أنا مش فاهم دا حصل ازاي.

رجع برأسه للوراء نظر لأشعة اللمبة النيون التي تضيء الغرفة باضطراب:

-شُفتها يا مصطفى.. شُفتها كأنها كانت نازلالي من السما.. طول اليوم بفكر فيها حتى وأنا قاعد مع حور كانت شاغلة بالي بطريقة غريبة.. كل لما أحاول أركز مع البنت دي عشان أحس بيها ومظلمهاش معايا أكتر من كده.. ألاقيها نطالي.. ولما روحت أجيب أيس كريم كانت بتزاولني.. وأنا بعدّي الطريق اتفاجئت بيها نزلة من السما زي الملايكة اتسمرت مكاني.. رجلي مشالتنيش مقدرتش أعدي خطوة واحدة.. مكنتش شايف حاجة جنبي غيرها.. عارف يا مصطفى أنا مستغرب نفسي.. إزاي هي قادرة تعيش أوي وأنا قادر أموت فيها بالقوي .

نظر له مصطفى ولم يعقِّب.. يعرف ردوده.. يعرف إجاباته.. لم يجد سبيلًا إلا أن يعطف عليه بنظرة ليس إلا.. خرج مصطفى ليدخلهما يعلم مدى قلقهما عليه.. مدَّ يده للمقبض وفتح الباب ليجدهما على الباب منتظرين الدخول.. جرت هاجر على حضن أخيها وأجهشت بالبكاء.. تعلم أن ليس لها في الدنيا سواه حتى وإن اطمأنت بوجود مصطفى بجوارها.. تبعتها حور تحبس دموعها.. جلست هي على كرسي بجانبه ولم تتكلم.. قطعت جلستهما الممرضة بكرسي متحرك.. تخبرهم أنه لابد أن ينتقل للعنبر الرئيسي.. أسندته برفقة مصطفى ليعتدل في جلسته على الكرسي دخلت به العنبر ليتذكر أول يوم رآها في هذا المكان على هذا السرير.. تبعهم رفقائه للداخل.. طلب مالك أن تضيء الأنوار يريد أن يرى شيئًا.. وجد مكانها شاغرًا وأشار بيده على سرير في آخر الطرقة يريد أن يرقد به.. يعلم مصطفى المراد من هذا الاختيار، ولكنه لم يتكلم.. نظرت حور

لهاجر باستغراب ولم تعقب.. أجلساه على السرير ليستريح طلب مالك من مصطفى أن يوصل حور لبيتها برفقة هاجر مراعاة لشكلها أمام الناس حتى لا تعود في هذا الوقت برفقة شاب غريب.. نظرت له وأخبرته أن والدتها تعلم أنها هنا.. وأنها لن تغادر وستظل برفقته.. لم يستطع أن يؤثر عليها فتكلم مصطفى:

-خلاص يا مالك سيبها براحتها.. وأنا هروح أجيبلك أكل من البيت.. وأجيبلك لبس من عندي عشان تغير هدومك .

وافقه مالك وأخبره أن يأخذ هاجر معه لتبدِّل ملابسها.. غادرا وتركا حور مع مالك في المكان الذي كانت فيه مريم في يوم من الأيام.. أمسك مصطفى بيد هاجر ليطمئنها، يعلم أنها قلقِة على أخيها.. ركبت بجواره في السيارة.. اتصل هو بوالدته أخبرها بما حدث وأن تجهِّز لهم الطعام ليعود به للمستشفى.. ناظرًا أمامه في الطريق وصوتها بجانبه يحدثه:
- مالك مينفعش يفضل كده..بالطريقة دي هيموت وأنا مش مستعدة أن دا يحصل .
رد عليها بنبرة تحمل خوفًا شديدًا على صديقه الراقد في المستشفى الآن:
-أخوكي عارف نهاية الطريق دا ومع ذلك مكمل في اللي هو فيه وأنا مش عارف السبب.. مفيش إخلاص بالشكل دا.. وبعدين الإخلاص بيكون لحد يستاهل مش حد باع وغدر بيه.. الإخلاص عمره ما بيكون لحد غرس في قلبه سكينة وبعدين كسرها عشان ميعرفش يطلعها ويكمل حياته تاني.. أخوكي هيجنني.. لسه بيحبها على إيه؟!

أجابته هاجر قائلة:

-مالك لما حبها أداها كل مشاعره يا مصطفى.. حبَّها أوي.. مخلاش حتى لنفسه حاجة يعيش بيها لوحده.. لما كان بيتعامل معاها كان بيديها كل حاجة على أساس أنهم مكملين سوا.. مالك كان بيحرم نفسه من حاجات أساسية عشان يوفرلها اللي تحتاجه.. حبَّها بجد .

لم يعقِّب على كلامها.. يعلم جيدًا أنه ضحى كثيرًا لأجلها.. يعلم ماذا يخفي هو عنهم.. ربما لأنه لم يجد كلامًا يقنعها أن مالك يحمل الكثير في طيات قلبه هرب من عينيها إلى الطريق وصل لمنزله وصعدا سويًّا لشقته.. لم يعد السلالم كعادته.. هرول سريعًا ليجد أمه في انتظاره.. سألته سريعًا عمَّا حدث، أخبرها وهو يضع الملابس في شنطة صغيرة ليعود بها لمالك.. أجلست هاجر وقبَّلتها وربتت على كتفها:

-معلش يابنتي.. عين وصابتكوا.. ليلتك كانت حلوة والحمد لله إنها جت على أد كده.

نظرت لها والدموع حبيسة في عينيها:

-يعني ماتجيش غير في مالك يا طنط .

-ربنا يقومهولك بالسلامة يا بنتي.. تعالي معايا غيَّري هدومك جوا بدل ما تروحي بيتكم وبعدين ترجعي على المستشفى.. وخدي هدوم للبنوتة اللي معاكم هناك .

* * *

تخلَّص من عبق الماضي بشعاع الحاضر والاشتياق إلى المستقبل .

(8)

كانت قدمه تؤلمه كثيرًا، ولكنه تعوَّد التحمل من فترة كبيرة وألم الحياة أصعب بكثير من هذا الألم.. يجد في عينيها لمعة يعرفها جيدًا.. كثيرًا ما رأى نفسه على هذه الحالة حسرة على حبيب لن يكون بقبضته في يوم من الأيام.. رجع برأسه قليلًا ونظر لها نظرة طويلة ولم يتكلم.. بدأت هي بالكلام لتزيل ساتر الصمت عنهم:

-إيه اللي حصل؟!

لم يكن يتوقع منها السؤال.. سرعان ما أدرك أنها فهمت الأمر.. رأت عينيه في الجهة المقابلة لم تكن تنظر لها.. سكت برهة ثم أردف قائلًا:

-رجعت عشان تعكنن عليكي القعدة يا حور.. مستحملتش تاكلي الأيس كريم بدالها .

نظرت في عينيه مباشرة:

-أنا بكرهها.. من غير ما أشوفها بكرهها .

لم يستطع أن يمنعها عن كرهها.. لها الحق فيما تقول.. لو كان هو مكانها لقتله.. قتل من يحاول أن يبعد بينه وبين حبيبته.. ولكنه لم يستطع فهي التي منعت بينهما.. نظر لها بألم يفوق ألمه.. بعين محرجة منها.. هي تفعل له كل ما تعتقد أنه يريده ولكن:

-انتي كل حاجة فيكي صح..

-عملتيلي كل حاجة حلوة ممكن أتمناها..

-أنا زعلان من نفسي عشانك..

-عايزك متزعليش مني وتسامحيني..

-وتعرفي أن دا غصب عني..

-انتي متعرفيش كل حاجة عني ولا تعرفي وجعي شكله إيه..

-العيب فيا أنا.. أنا آسف.. حتى أننا نكون أصحاب أنا مش عارف أكون صاحب جدع..

قال هذه الكلمات وسقطت الدموع من عينيه كحبات الندى المشتاقة لاحتضان أوراق الشجر.. شعرت هي برعشته تسري في قلبها.. ابتلعت ريقها.. أخذت نفسًا عميقًا كي تهدأ ثم قالت:

- طب كمِّلي الحكاية يا مالك ؟!

لم يرد أن يؤلمها أكثر من ذلك ولم يكن يعلم هل سيقوى على كل هذا الألم جرعة واحدة.. ألم قدمه.. قلبه.. وألمها لم يكن يعلم هل يريد حقًا أن يحكي ويُخرجِ كل ما في جعبته حتى يستريح أم أنه يريد أن يظل هكذا.. يخفي عن الجميع الحقيقة ولا يعلمها أحد سواه.. ومن تكون هي ليخبرها بالحقيقة.. كان دومًا يحلم بها وعندما أتت وجدت قلبه ليس بمكانه.. وجدته أسيرًا في مكان آخر.. حاول أن يعتدل في جلسته، اقتربت هي أكثر بكرسيها.. لا يعلم من أين يبدأ.. أيبدأ من النهاية أم من أين.. يعلم جيدًا

أنه اليوم لن يتكلم عنها في غيابها فهي كانت حاضرة ذات يوم هنا في نفس المكان.. حاول أن يتهرب من الكلام.. قاطعته حور قائلة:

- أنت ليه مش عايز تحكي.. شايفني مستاهلش تعرفني وجعك دا مصدره إيه.. مش يمكن لما تحكيلي تلاقي عندي حل لكل دا.. ليه عايز تفضل جوَّا الدايرة الصغيرة دي.. لو فضلت عايش في خيالك كتير.. ممكن تموت جوَّاه وساعتها ولا هتطول خيال ولا واقع.

أجابها مالك بأسى وحزن:

-ماهو أنا لو خرجت برا الدايرة دي هموت.. أرحملي أموت مخنوق جواها ولا أني أموت من صدمة تانية برا دايرتي .

أجابته بحدة:

-وليه بِتسّبق؟

لاتعلم أنه أصبح ضعيفًا جدًا.. هشًا لا يقوى حتى على الإفصاح عما بداخله.. لاتعلم أن جرحه ما زال ينزف.. بعد أن صمت قليلًا فجأة بدون أي مقدمات.. قرر أن يخبرها بما داخله وفي آخر الكلام تقرر هي البقاء أم الرحيل وبدأ يصف لها علاقته بمريم.

-استمرت علاقتهما في النور أمام الجميع لا يشوبها أي فعل خاطئ.. هما بمثابة عاشقين تمَّت خطبتهما.. والدتها تعلم أنه في أول فرصة تسمح له سيقوم بخطبتها.. تعلم أنه يستطيع في سنين دراستها الجامعية أن يعثر على شقة ليبدءا فيها حياتهما سويا.. مرت الأيام والشهور ممتعة.. كل يوم يزيد حبه لها يتعلق بها.. يعلم أن حياته لن تتحرك خطوة واحدة إلا بها.. وهي يصيبها هوس المرض.. كأي فتاة تريد أن تصبح أمًّا .حاول كثيرًا هو

ووالدتها أن يقنعاها بعدم التفكير في هذا الأمر، ولكنه شيء فطري في أي أنثى لديها غريزة الأمومة.. خاصة عندما تكون في حنانها.. من الصعب على الأنثى أن تعلم ذلك بعد الزواج فما بالك بقبله.. خُيَّل لها أن مالك يستمر معها شفقة عليها.. مهما ما حاول أن يثبت لها عكس ذلك.. وأنه إن أراد تزوج بغيرها ولكنه يحبها.. صممت هي أنه في يوم من الأيام سيغدو قلبه يريد أن يصبح أبًا وهي لن ترضى بأن تشاركها فيه إحداهن.. وفي يوم من أيام شتاء ديسمبر القارص.. تأخرت في الجامعة على غير المعتاد.. اتصل بها مرارًا لا تجيب.. انتهى من عمله وذهب لها الجامعة لم يجدها في كليتها.. سأل عليها زملاءها أخبروه أنها في مبنى كلية الطب.. لم يهتم وذهب إليها واطمأن عليها.. لم يسألها عن سبب وجودها هناك فقط سألها لم لا تجيب.. كعادتها أخبرته أنها لم تسمع الهاتف قائلة:

-الشبكة وحشة ومسمعتش الموبايل .

يفتقدها كعادته.. ولا يريد أن يزعجها بقلقه عليها.. همَّ قائلًا:

-طب يلا عشان عازمك على الغدا النهاردةتحبي تاكلي إيه؟!

تشبثت به وأمسكت يده بقوة.. تجد فيه اهتمامًا يفوق توقعاتها وحبًا يفوق الخيال.. كان يوما مرهقا حقًا ولابد أن ينتهي بجواره.. أخذها وقرر أن يفاجئها كعادته حتى وإن كانت هذه المفاجآت تجعله ينفق ما يدخره للحصول عليها في أقرب فرصة.. مشيا بطول الطريق يتكلمان في أمور الحياة وهو يطمئن على دراستها.. وهي تخبره أنها تريد أن تصبح أمًّا وهو يغيِّر الموضوع وهي تستشف أنه خائف عليها وهي لا تبالي.. حاول بمرور الأيام أن يعوضها هذا الإحساس.. بأن يؤكد لها أنه يعمل بكل طاقته

ليجعلها أسعد إنسانه في الوجود.. مرت أيام وشهور على هذه الحياة.. يتعلق هو بها كل يوم أكثر وتفتقد هي إحساس الأمومة أكثر وأكثر .

* * *

غالبًا خسارتك لشخص تحبه تجعلك تفقد مذاق الحياة.. تصبح حياة بلا طعم ولا رائحة وألوانها جميعها باهتة تميل للسواد.. الرحيل وحده قادر على تحطيم صناديق الألوان الزاهية التي حاولت أن تجمعها كل يوم لتلوِّن حياة أحدهم.. فيرحل هو ويتركك وسط حطام الصناديق ومزيج الألوان جميعها بعد أن تكاتفوا جميعًا لتصبح حياتك باللون الأسود الغامق.. تظل أنت تحت مسمى النابضين بالحياة.. تجد قلبك حينها غير منصف.. يسكن بداخلك وينبض للراحلين.. تغدو ذكرياتهم لتحطم ما تبقى لك من أيام.. لا يكفيهم ما رحل منا معهم.. لا يعلمون أن القلب ينبض لهم وأننا موتى منذ رحليهم .

* * *

ظلَّ يجري.. يهرول ويلهث ولكنه فاته القطار.. ظل يلوم نفسه على تأخره في الاستيقاظ الذي أدى إلى فوات موعد القطار.. حمل حقائب الخامات اللازمة للعطور كعادته التي اشتراها من القاهرة.. بدأ كعادته مناقشة نفسه في جميع الأمور:

-أنا لغاية ما أروح عبود.. وأستنى لما العربية تحمِّل عشان أدفع 3 أضعاف تمن التذكرة اللي معايا.. أنا أستنى هنا في كافيتيريا المحطة لغاية ميعاد القطر.. وبفرق التمن أجيب بيه أي حاجة لمريم .

اتجه نحو الكافيتيريا.. دخل ووضع حقائبه أولًا على كرسي، اطمأن على مستقبله في العمل أولًا ثم جلس على الكرسي المقابل.. طلب من أحد العاملين في الكافيتيريا طعامًا يكفيه ويسد جوعه جلس منهمكًا في مسح عرقه المتصبب على جبينه منتظرا السندوتشات.. دخلت من الباب أنثى لم تتعدّ العشرين عامًا.. يد تحمل حقيبة والأخرى تحمل أجندة وكتبًا دراسية.. نظارة طبية تشبه التي يرتديها.. لم يتبين ملامحها.. بدأت في الوقوف أمام كل ترابيزة أقل من خمس دقائق تخرج ما في حقيبتها تعرضه على الجالسين وتدخله مرة أخرى وتنصرف.. خلال كل مرة كانت تبتسم في وجه الزبائن ابتسامة تبدو نقية، ولكنها تحمل ألمًا ووجعًا.. بمجرد أن تعطي الزبائن ظهرها تتضح أكثر ملامح الأسى على وجهها.. اقتربت منه.. دقق النظر بها.. مجال عمله الخاص جعل منه شخصًا يفهم الناس من حركاتهم.. وقرأ قليلًا عن لغة الجسد.. اتجهت للترابيزة التي يجلس عليها.. ليجدها فتاة بيضاء على وجهها بعض النمش الذي زادها جمالًا، حجابها الذي زيَّن هذا الوجه، أنفها الحاد، عينها التي ميزها بصعوبة تميل للزُرقة.. ولكنه لم يتمعن في النظر إليها لأن عنده ما يمنعه أولًا لديه حبيبة تغنيه عن النظر لأي أنثى سواها وأخت يخاف عليها هو فقط شرد في كونها متحملة المسؤولية ورغم دراستها تعمل، ذكَّرته بنفسه قليلًا.. فجأة سمع صوتها بصعوبة من رقته:

-ممكن أخد من وقت حضرتك خمس دقائق؟

أجابها كعادته ناظرًا لها بوقار: اتفضلي .

-أنا معايا عيِّنة كويسة من البرفانات وأسعارها كويسة .

وبدأت تخرج ما في حقيبتها لتريه إياه.. بدأ يمسك الزجاجات وكغير عادته لم يجرّبها.. وهو ابن سوق وكان يعرف أن من حقه أن يجرِّب ويعاين.. لم يفعل ثم نظر لها ثانية ليرى تلك الابتسامة التي تجاهد كثيرًا لتبيّن صدقها ولكنه يعرف أنها تخفي كثيرًا من الوجع وراءها.. بدأ يتفحص العينات.. ورغم أنه يعمل في العطور وله خبرة إلا أنه أخبرها أنه سوف يشتري كل ما في حقيبتها هكذا يحاول دومًا أن يساعد من يشبهونه أو يستشعر فيهم تعبًا مرَّ به هو يومًا وإن كانت مساعدته لها عابرة قائلًا:

-أنا هشتري كل اللي معاكي.. بس ليا طلب واحد.. اختاريلي من الحاجات اللي معاكي دي حاجة كويسة أهديها لخطيبتي.. هزَّت رأسها موافقة وبدون أن ينظر لها حتى قام من مكانه وأنزل حقائبه من على الكرسي وطلب منها الجلوس، اتفقا على السعر.. أخبرها أن لديه محل عطور وأسعارها مناسبة ويمكنهما أن يتعاملا سويًّا.. همت هي بالانصراف واتصل هو بمريم يخبرها أنه سوف يتأخر لأن القطار فاته ويأخذ منها ميعاد:

-هشوفك بكرة ماليش دعوة.. وحشتيني.

أجابت هي بفتور:

-وأنت كمان .

لم يشعر بهذا الفتور لإرهاقه وانتظاره للقطار وتأخُّره وهو يترك والدته وأخته بمفرديهما.. اطمأن عليها وأغلق الهاتف ليتصل بمصطفى ليخبره أنه سيتأخر ويريد منه الذهاب للمنزل ليطمئن على والدته.. جلس يفكر في مريم وحياتهما سويًّا.. وتجلس هي في الجانب الآخر تفكر في أشياء

أخرى لم تكن في حسبانه وظن أن حبه لها سوف يجعلها تتغاضى عن هذه المشاكل.. وصل مالك بيته في ساعة متأخرة واطمأن عليها قبل أن ينام على أمل لقائها غدًا.. استيقظ متأخرًا نتيجة يوم شاق بالأمس.. مرَّ الروتين اليومي حتى الساعة الرابعة قبل ميعادهما بساعة أخذ يرتب نفسه وسبقها لينتظرها في المكان المتفَق عليه.. وصلت هي وأضاءت المكان بنور جمالها.. قام وأجلسها.. أخذ يحكي لها ما حدث معه أمس في محطة القطار.. كان يشرح لها وهي شاردة في ملامحه الخمرية.. لحيته المهندمة نظَّارته الطِبيَّة، أنفه الذي وُجِدَ خصيصًا في هذا المكان لتحمل نظارته التي تداري ضعف نظره.. أم تقول إنها كانت تراقب حركات شفتيه وكانت تريد التهامهما معتذرة عمَّا تقترف في حقه من ورائه.. تنظر له بارتباك يتأملها، ولكنه شعر بدوار خفيف يصيبه في منتصف رأسه، أمسك بالنظارة وبدأ يمسح زجاجها بمنديل ورقي.. عاد يتأملها وهي تتكلم.. كم يعشق تفاصيلها.. تداري هي ألمًا.. تقول لنفسها:

-أنا عملتله إيه عشان يعمل عشاني كل دا.

جال بخاطرها فيما يفكر تجاهها.. مايعد من أجلها.. ولكنه الآن لا يدري لماذا يدق قلبة بسرعة 130دقة في الدقيقة أيّ معدل هذا قامت بضبطها إياه.. حاول أن يملأ قلبه بملامحها، ولكنه فشل.. كيف له أن يشبع منها وهي كل يوم تزيد حلاوة في قلبه، يتذكر كل ما حدث من أول العلاقة حتى الآن يتذكر ما يفعله من أجل إسعادها هي التي استطاعت أن تفض بكارة قلبه.

خانتها دمعة لم تكن تتوقعها بدى قلِقًا عليها وسألها:

-مالك يا مريم فيكي إيه.. الدمعة دي سببها إيه؟

قبل أن تجيبه كانت تحتاج لإجابة لنفسها.. هل سقطت هذه الدمعة من خوفها من إضاعته من يدها.. كيف لعقلها أن يقف عن استشارة قلبها قبل فعل هذه الأفعال.. هي تحبه ولكنها تريد أن تصبح أمًّا.. هو لن يستطيع أن يحقق لها هذا الحلم مهما حاول.. مسحت جفنيها من دمعة خائنة كادت أن تفضحها ثم أجابته:

-مفيش يا حبيبي.. أنا بس مبطلتش تفكير في الموضوع إياه .

نظر لها بعد اضطرابات قلبه وتوتره الملحوظ، أمسك يدها ووضعها على قلبه حتى يهدأ.. وهي من داخلها تريد أن يحتضها يطمئنها.. قام من كرسيه وجلس على الآخر القريب منها.. اقترب لها يريد أن يملأ عينه وقلبه بملامحها ثم قال لها:

-أنا حاسس بيكي وفهمت اللي عايزة تقوليه.. أنا محتاج نفس اللي إنتي محتاجاه ويمكن أكتر.. بس ربنا مش عايز دا نقوم نعترض عليه.. أنا وانتي معملناش حاجة من ورا حد أنا بشتغل ليل ونهار عشان تبقى بتاعتي.. تبقى بنتي حبيبتي وأمي كمان.. أنا مش عارف بقول إيه بس حاسه أوي.. حبيتك من زمان أوي وكل يوم كنت بحبك أكتر.

مرَّ الوقت عليهم في المكان محاوِلًا هو أن يهدئ من اضطرابها.. ومحاوِلة هي إخفاء ما نجحت في إخفائه عليه.. أوصلها كعادته لمنزلها.. مرت عليه الأيام صعبة يعمل حتى في أوقات الفراغ ليقصِّر المسافة بينهما.. استمرت هي جاهدة في إخفاء ما يمكن إخفاؤه حتى لا تجرح مشاعره.. هو الذي يضحي براحته من أجلها.. ضحى بأن يكون أبًّا من أجلها.. علم أنه

سيكون لها ابنًا وأبًا في نفس الوقت.. استمر الوضع على ما هو عليه، شعرت هاجر باستياء تجاه أخيها.. لم تعد تراه.. يعود متأخرًا من العمل يعمل عدد ساعات إضافية ليجني أكبر قدر ممكن من المال.. أجابها ذات يوم عندما سألته عن سبب ذلك:

-ماهو أنا لازم أكون جاهز في الميعاد يا هاجر.. هي ممكن تستحمل عشان بتحبني إنما أهلها لو رفضوا عريس مش هيرفضوا التاني.. أنا مش عايز أحطها في موقف وحش مع أهلها.. أنا عايزها تبقى ملكة محدش يوجهلها كلمة مالهاش لزمة.

-أمها عارفة على فكرة وعارفة أنك راجل جدع وهتستناك.

كان مرهقًا من يوم طويل رجع بظهره على حافة السرير ثم أغمض عينيه وفتحمها:

-مع أول عريس لبنت خالتها هتلاقي أمها قلبت علينا.. وتقولها كلام ملوش لازمة "بنت خالتك اتخطبت وانتي قاعدة.. وابن خالك هيموت عليكي " وكلام كتير زي كده.أنا حبيتها أوي يا هاجر عشان كده مش عايز حد يضايقها بكلمة مالهاش لزمة.

أدركت هي حبه لها.. تعلم مشاعره جيدًا فهي تتذكر أخاها عندما يرضى عن أحد يمكنه أن يضحي من أجله بكل غالٍ ونفيس.. تتذكر أيضًا مواقفة النبيلة معها ومع والدتها.. تتذكر شغله ليل نهار من أجل أن يوفر لهما حياة كريمة بجانب المعاش.. لم تتمكن من نصحه لأنها تعلم أنه يحبها ويريد أن تصبح زوجته في أقرب وقت.. انتهت من كلامها وإستغرق هو في نومه .

مرت أيامه صعبة.. يحاول جاهدًا أن يكون جاهزًا في أقرب وقت.. مرَّ الوقت على هذه الحالة يحاول هو إرضاء مريم بشتى الطرق وتحاول هي إخفاء الحقيقة عليه.. لا تعلم ماذا تخبره.. هو يعلم جيدًا احتياجها لتصبح أمًّا في يوم من الأيام.. بدأت المشاكل تظهر في علاقتهما كأي علاقة طبيعية يشوبها القلق أحيانًا.. هو دائما مشغول لكن لا ينشغل عنها إطلاقًا.. في المقابل هي أصبحت غير مهتمة وتحاول أن تداري هذا الفتور.. كوَّنت صداقة مع تامر.. آخر سنة في كلية طب ووالده عميد الكلية.. سوف يقوم والدته بتعيينه معيدًا في الكلية.. طويل، أبيض البشرة، جسم رياضي، شعر أصفر وعينان خضراوان، يتميز أيضًا بعربية آخر موديل السنة.. تعرفت عليه بالمصادفة في كافيتريا الكلية وأصبحا صديقين رغم تحذير مالك عليها في هذا الموضوع.. أخبرها ذات مرة:

-مينفعش يكون ليكي أصحاب ولاد.. ودا مش معناه أني متخلف وتفكيري قديم والكلام دا.. دا معناه أني بحبك وبخاف على شكلك قدام الناس.. ودا مش معناه إن ميكونش ليكي زمايل.. لا عادي جدًا إن يكون ليكي زمايل ويكون التعامل في حدود الكلية وبس، إنما غير كده مينفعش.. ولم تعارضه هي حينها لأنها تعلم مدى حبه لها.. وصل مالك معها في الحب ذروته.. وصل لمرحلة يستحيل أن يستغنى عن هذه الأنثى التي جعلت لحياته قيمة.. أصبح هناك مقابلات ومكالمات بين مريم وتامر.. تامر الذي تعوَّد أن يغيِّر كل سنة صديقة مع السيارة.. مع الوقت أخبرته هي بمشكلتها مع الأمومة فاستطاع إقناعها أنه يستطيع مساعدتها ومع الوقت وانشغال مالك في حياته العملية من أجلها وقعت هي في حب

تامر.. تراه في الكلية يوميًا، يتكلمان باستمرار ومالك يتصبب عرقًا وجوعًا من أجل توفير ما يمكن توفيره من أجلها.. شعر مالك بهذا الفتور، ولكنه سرعان ما تغلَّب عن هذا بخلق الأعذار لها.. يعلم أنه مهما كان يحاول ألا ينشغل عنها فهو بالفعل كذلك.. قرر أن يفاجئها ويغيِّر روتين الخروجات المعتادة بأن يحتفل بعيد ميلادها بشكل مختلف.. أخبرها أنه مسافر لإحضار خامات العمل من القاهرة وفي المساء يتقابلان للاحتفال بعيد ميلادها.. فرحت هي لهذا.. وقام مالك بإحضار كل شيء ليفاجئها.. حجز ترابيزة في كافيه محترم.. ووصى العاملين بتجهيز التورتة في الوقت المناسب.. وقرر أن يذهب ويحضرها من الجامعة ليفاجئها ويخبرها أنه فعل كل هذا لأجلها.. لم يكن تامر يعلم بوجود شخص كمالك في حياتها.. لم يكن مالك يحبذ الظهور في الجامعة لخجله دومًا من كونه حاملًا لشهادة متوسطة.. فمع أول سؤال سوف تحرج هي من الموقف.. لذا قرر هو أن يكمل تعليمًا مفتوحًا، ولكن في وقت لاحق.. ذهب للجامعة وسأل عن مكان كليتها ووصل فلم يجدها.. فسأل زميلاتها فأخبرنَّه أنها يوميًا في هذا الوقت تكون في كلية طب.. قلق هو عليها، شعر بخوف يطرق أبواب قلبه.. سار متباطا وكانه يحمل ثقلًا غير عادي على قدميه.. وصل لكلية الطب ليجدها جالسة داخل السيارة مع تامر الذي لا يعرفه هو.. استند على أقرب حائط ليحاول أن يدرك الموقف.. خلع نظارته ومسحها جيدًا وأعاد النظر.. إنها هي.. ماذا يفعل.. هل يذهب ويسألها عنه.. أم ماذا.. إجابة السؤال معروفة.. لا يجلس هكذا سوى حبيبين بل عاشقين.. إذا من أنا.. وماذا أكون بالنسبة لها.. حاول أن يكذِّب نظره.. أخرج هاتفه واتصل بها ليراها تفتح باب السيارة فيتوارى في مكان بحيث لا تراه و ترفع الهاتف على أذنها وتجيب كعادتها:

-ألو يا حبيبي.. أنت فين ؟!

وقع الكلام على قلبه كماء نار.. حاول أن يفيق من الصدمة، ولكنه تدارك الموقف ثم أجاب:

-أنا وصلت القاهرة.. متنسيش معادنا بالليل.. سلام .

استغربت هي رد الفعل ونظرت حولها جيدًا لم ترَه.. رجعت هي للسيارة ليمسك هو يدها ويقبِّلها.. لتنزل الصاعقة على صدره ولا يعلم ماذا يفعل .

*   *   *

وقدرت يا مالك تشوفها في المنظر دا ومتعملش حاجة ؟ !

-كان هذا رد حور على الكلام .

نظر لها هو والدموع تملأ عينيه يحجزها كمن يداري سوءته.. ثم قال:
-كان المفروض أعمل إيه.. واحد شغال ليل نهار عشان يعمل أربع حيطان يتدارى فيهم هو حبيبته لما يبص يلاقيها في عربية ميقدرش يجيبها غير بعد شغل 10سنين.. كان ممكن أعمل إيه.. أروح أقولها مين دا.. عشان هو اللي يسألها نفس السؤال.. أنا مين؟ مش هتعرف ترد عليا ولا عليه.. وهي كان ردها هيكون إيه؟!

كان ممكن أعمل إيه لما أشوفه ماسك إيديها وبيبوسها.. راكبة معاه في العربية بيعملوا إيه.. ماتردي عليا كانوا بيعملوا إيه.. وبدأت الدموع تتساقط من عينيه كحبَّات المطر في شتاء ديسمبر.. لم تفعل له حور في

هذا الوقت شيئًا غير أنها حركت الخنجر المغروس في قلبه.. فقط حركته لينزف من جديد.. نظر لها وقد تبللت لحيته بالدموع.. ثم قال:

-أنا ضعيف وعارف أني ضعيف.. بس حبيتها.. وعلى قد الحب بيكون الوجع .

ربتت هي على كتفه، حاول أن يمنعها أو يزيلها من على كتفه لترد هي بحنان بالغ:

-في عز الوجع هتلاقي إيد تطبطب عليك متوجعهاش.. متوجعنيش يا مالك.. أنا عارفة أن وجعك تقيل أوي.. خليني أشيل معاك.. كمل يا مالك.. لما تخلَّص كلام صدقني هترتاح.

* * *

أدار ظهره لهما وترك المكان سريعًا.. باكيًا كطفلٍ فقد يد والدته.. بكى بكاءً لم يعهده من قبل.. اتصل بالكافيه وأجَّل الحجز للميعاد الذي اتفق معها عليه.. ذهب للبيت ولم يخبر أحدًا بما جرى.. حاول أن ينام ولكن المنظر لا يريد أن يتركه.. كيف لقلب تعلَّم الحب لأجل شخص أن يجرح هكذا.. حاول جاهدًا أن يداري ما به عن والدته وأخته.. تزيَّن كأنه يوم فرحه.. واتصل بها وأخبرها أنه في انتظارها في الكافيه.. فلا داعٍ للتأخير لأن هناك مفاجآت.. هي تعلم مفاجآته.. تحبها.. أو بدأ يعلم أن كل شيء كان.. كان تحبه.. وصل المكان وأكَّد على الحجز حتى وصلت هي.. قام ليجلسها .ليبدأ الحفل.. حفل عيد ميلادها وموته.. ليس الموت فقط أن تترك الروح الجسد إنما يحدث أحيانًا أن تتمسك الروح بالجسد لتموت داخله ولا ترحل فتظل أنت تعافر لتخرجها وهي تأبى الخروج.. بدأت

مراسم الحفل وظهر عليها الفرح ولم تلَحظ الصراخ في عينيه.. ظل صامدًا يلفظ أنفاسه تباعًا.. ولكن هذه المرة لم يجلس بجانبها كعادته.. جلس مقابلها ليراقب عينيها يريد أن يرى فيهما الفرح القديم الذي كان يفرح بوجوده في عينها.. استطاع أن يشعر أخيرًا بفتورها وإن كانت تحاول أن تُظهِر فرحها.. أشار للعاملين في الكافيه فأتوا بالتورتة.. احتفلا سويًّا وأطفآ الشمع.. أخرج من جيبه خاتم ذهب اشتراه من أجلها.. رآته هي ذات مرة عندما كان يوصلها للبيت في محل مجوهرات في المنطقة أشادت هي بذوقه العالي ورونقه الخاص.. فقرر هو حينها أن يأتي لها به كعادته يهاديها بكل ما يحلو في عينها.. بدأت عينه تلمع بعد أن لبست الخاتم فبدأ بالكلام لأنه لم يستطع الصمود أكثر من ذلك.. لم يستطع أن يداري النزيف أو يتحمل الألم:

-كل سنة وانتي طيبة يا أغلى حاجة عندي.. يا أحلى حاجة حصلتلي .
أجابت هي في هدوء: وانت طيب يا حبيبي .

-عجبتك الهدية؟!

-أه.. أوي.. تسلم إيدك يا حبيبي .

-حبيبك !!.. متأكدة ؟!

اضطربت هي من هذا التعقيب خاصة أن عينه رقرقت بالدموع فأجابت باستغراب:
-طبعًا حبيبي.. أنت مش عارف دا ولا إيه؟!

صوت ضحكات متتالية تتصارع داخله يعلم أنها تحمل أنينًا على خيبة أمله:

-أنا كنت عارف دا.. بس دلوقتي مش عارف حاجة .

- مالك يا مالك.. فيك إيه؟

نظر لها في ضعفٍ كامل.. ولا يعلم ماذا يقول، ولكنه امتلك الشجاعة وبدأ في الكلام:

-أنا عملتلك إيه؟!.. عملتلك إيه وحِش عشان تعملي فيا كده.. أنا عملت كل حاجة لازم تتعمل عشان نبقى لبعض في أقرب وقت.. عملتي فيا ليه كده؟ !

خمنت هي أنه علم شيئًا بخصوص تامر لكنها لم تكن تتوقع هذا الرد أو هذه الطريقة، تمالكت نفسها ثم أجابت:

-عملت إيه بالظبط.. أنا مش فاهمة حاجة ؟!

لم يكن يريد أن يسمع منها كذبًا.. كان يريد الصراحة وإن كانت قاتلة.. فهو لا يريدها كاذبة.. لا يريدها خائنة.. بل يريدها حبيبته.. ابنته وزوجته... أردف قائلًا:

-أنا عرفت كل حاجة.. وشُفتك بعيني النهاردة.. أنا لو كان حد حكالي كان مستحيل أصدق.. إنما أنا شوفت بعنيا.. بالصدفة مكنتش مخوِّن.. كنت مديكي ثقة مالهاش حدود ومكنتش بدور وراكي.. هو في حد بيدور ورا نفسه !!

تساقطت منها دمعة.. مسحها بيده ثم أكمل:

-متعيطيش.. أنا دوري انتهى لحد كده.. بس أنا عايز أعرف أنا عملتلك إيه عشان تعملي فيا كده.. أذيتك في إيه عشان يكون جزائي دا؟ لم تجب.. لم تكن تملك الشجاعة لتواجه هذه الكلمات المصاحبة لدموعه.. كانت دموعه تفوق كلامه بمراحل.. لم تستطع أن تشرح له أي شيء.. وعلم هو من سكوتها أنه أصاب الحقيقة.. كان يلبس دبلة في يده تفاؤلاً بأنهما في يوم من الأيام سيجمعهما النصيب.. خلعها من يده وأعطاها لها.. وقبل أن يغادر طلب منها أن تمشي معه ليوصلها للبيت لآخر مرة.. مرورًا بالعاملين في المكان الذين استغربوا للموقف ولم يعقبوا.. أخرج ما في جيبه من نقود وحاسب إدارة المكان ورحل.. أشار لتاكسي وركبت هي في الكنبة الخلفية وجلس هو بجوار السائق.. لم يتكلم ولم ينظر لها طوال الطريق.. أوصلها ولم تنطق هي بكلمة واحدة.. ومنذ ذلك الوقت لم يرَها مرة واحدة حتى الآن .

* * *

ثم نظر لحور بعين تملؤها دموع الفراق والوجع والخيانة: وهي دي قصتي مع مريم .

اليوم عرفَتْ السبب الذي أوقف هو حياته من أجله .انعدام الثقة في جنس النساء من بعدها فهي التي أعطاها ما تتمناه الأنثى من حب وحنان واهتمام وتضحية.. كانت تريد أن تبكي لوجعه، ولكن هيهات.. هل تبكي لتزيده وجعًا على وجعه أم تتماسك وتهدئ من روعه.. حاولت أن تصبِّره بكلمات تعلم هي أنها لا تجدي في مثل هذه الحالة، ولكنها تابعت قائلة:

-هي محبتكش أصلًا يا مالك ؟!.. مفيش حد بيحب حد بيوجعه أوي كده .
مسح مالك دموعة وتحامل على وجعه وأجاب:

-بس أنا حبيتها وموجعتهاش .

أردفت هي قائلة:

-أنت حبيتها أه.. بس اختيارك كان غلط ومش معقولة هتفضل موقف حياتك على اختيار غلط.. مفيش عقل بيقول كده.

لم يعطها الفرصة لتكمل كلامًا يعلمه هو جيدًا.. وأوضح لها أنه منذ أن عرفها وهو لا يفكر إلا في إسعادها.. أوقف عقله عن العمل وعاش معها بقلبه فقط وهذا هو الجزاء.. ثم نظر لها قائلًا:

-ربنا اداني عقل وقلب.. وأنا ركنت عقلي وسيبت لقلبي الاختيار وكان دا جزائي.. ولو كان حصل العكس كان هيبقى جزاء تاني مشابه.. ربنا خلق الاتنين عشان يكملوا بعض مش عشان نستخدم واحد ونركن التاني.. أنا فعلًا غبي.. غبي أني حبيت بجد.

ربتت هي على يده وحاولت تهدئته كثيرًا حاول هو الآخر أن يتحلى بقوة لا يعلم مصدرها، فهو لا يريد أن تراه ضعيفًا.. شكرها على مجهودها فأجابت في حزم:

-أنت بتشكرني على إيه يا مالك.. أنا اللي مش عارفة أشكرك ازاي أنك حكيتلي .
لم يعقِّب مالك وقطع حديثهما صوت الهاتف ليجيب هو:

-آلو.. أيوة يا مصطفى.. أه هات معاك أكل.. متتاخرش.. سلام .

حاولت هي تغيير الموضوع وتلطيف الجو بكلمات المواساة في مثل هذه الظروف.. كان بداخلها فضول معرفة السبب الذي جعل مريم تفعل هذه الفعلة في قلب تعلم حبها في ظروف غامضة ولم يتخلَ عنها رغم علمه بأنه لن يكون أبًا في يوم من الأيام.. وبعد أقل من نصف ساعة دخل عليهما مصطفى وهاجر ومعهما العشاء.. جلسوا جميعًا بجانب مالك وتناولوا العشاء سويًّا .حاول مصطفى أن يخرج مالك من حالة السكوت التي رآه عليها.. وحاولت هاجر أن تداعبه وتلقي عليه نكاتها السخيفة.. استمر الوضع هكذا حتى طلع الفجر عليهم.. طلب مالك من حور أن تأخذ هاجر معها البيت لتستريح لأنه من الصعب أن تكون بمفردها في منزلها.. وطلب من مصطفى أن يوصلهما:

-وصلهم يا مصطفى وروح نام.. ولما تصحى أبقى تعالي.. وانتي يا هاجر متجيش غير لما تاخدي راحتك في النوم ومتقلقوش عليا أنا كمان هنام.. ولو احتجت حاجة هكلمكوا .

رفضوا جميعًا الرحيل، ولكنه أصر على ذلك.. أخذهما مصطفى لأنه يعلم أنه عنيد.. رحلوا جميعًا وأتته هي في نفس المكان الذي تقابلا فيه لأول مرة.. جلس هو شاخصًا بنظره للسقف ليجدها جالسة تنظر له بنظرتها التي تعوَّد عليها.. لم يستطع أن يكرهها بعد كل هذا.. لم يستطع أن يلومها أو يعاتبها أو يعاقبها.. الحب يذل المخلصين في حبهم.. أجهده الألم وباتت جفونه تتساقط من الإرهاق وغاب في نوم عميق .

* * *

وإن عاد لك الماضي ليعكر صفو حاضرك .ابتسم له تلك الابتسامة السخيفة.. وارحل.

(9)

أوصلهما ورحل مصطفى لينام قليلًا قبل بداية يوم شاق ومتعب.. نامت هاجر جراء ليلة مزدحمة ومتعبة.. لم تستطع حور أن تنسى شكل مالك وهو يبكي.. ولكن لم تستطع مقاومة النوم فنامت من التعب.. قبل الظهر بقليل، استيقظت حور وقامت بتجهيز الإفطار لهاجر فهي ضيفتها اليوم وتريد منها أن تخدمها في شيء مهم.. أيقظتها وجلستا في غرفتها لتناول الإفطار.. دومًا تشعر هاجر بالذنب تجاه حور لأنها تعلم بحبها لأخيها ولكنها لا تستطيع مساعدتها.. تناولتا الطعام مع بعض الدردشة عن مالك وأخبرتها أنها عرفت كل شيء منه شخصيًا.. طلبت منها طلبًا غريبًا جدًا:

-أنا عايزة رقم مريم.

-ليه ؟!

-عايزة أكلمها عايزة أعرف هي ليه عملت كده .

-هتستفادي إيه.. دي واحدة واطية وباعت أخويا بالرخيص .

-أنا مش هتصل أعاتبها لأن دي خسارة فيها العتاب.. أنا بس عايزة أعرف السبب .

- مالك لو عرف هيزعل يا حور.

-لا ماهو احنا مش هنعرَّفه.

-طب هتقوليلها إنتي مين وعايزة تعرفي دا ليه؟

-هقولِّها الحقيقة.. لسببين .

-إيه هما بقى؟

-أول سبب عشان تعرف أن مالك مش لوحده.

-والتاني؟

-عايزة أعرف هي عملت كده ليه.. ومن الحتة دي أعرف أنا بقى أكسب أخوكي .

-بتحبيه أوي كده؟

-أنا عمري ما قُلتها ولا حسيتها مع حد.. أنا حتى أصحابي كانوا بيقولوا عليا تنكة ومبيعجبنيش حد.. أنا من يوم ما شُفت مالك وقُلت أن ده اللي هيغيَّر حياتي.. دا خلاني من أول مرة أنا اللي طلبت أني أكلمه.

-وصدقيني هو مش قاسي كده.. الوجع بس مخليه قاسي .

لم يطل الحديث في هذا الموضوع قبل أن تخرج هاجر نمرة مريم من على هاتفها لحور وسجلتها على هاتفها.. استبدلت كل منهما ملابسها واتصلت هاجربمصطفى ليتنظرهما تحت المنزل حتى لا يتأخرون على مالك.. وبالفعل وصلوا المستشفى في الميعاد.. ليجدوا مالك منتظرهم في شرفة المستشفى يجلس على أحد الكراسي البلاستيكية شاخصًا ببصره في الشارع يستمد قوته من الناس المنتشرين في كل مكان.. يدخل في أدمغتهم يريد أن يعرف فيما يفكرون.. لفت انتباهه حبيبان يجلسان في نفس

المكان الذي تعود أن يجلس فيه مع مريم.. ضحك بسخرية ثم قال: لو دامت لغيرك كانت هتدوملك .

دخل عليه الشرفة مصطفى تتبعه هاجر تتبعها حور ، ترى مالك من اليوم بشكل جديد.. زاد شهامة ورجولة في نظرها وزاد تمسُّكها به.. سرحت بخيالها في نفس الديكور الذي كان لا يحمل سواها هي ومالك في حلم واحد وهي تحتضنه من ظهره ليداعبها هو قائلًا:

-ياريت نبطل قلة أدب ونراعي أننا في المستشفى.. كانت تشتاق لشعور حب منه إليها .

أفاقتها هاجر من سرحانها: اقعدي يا حور واقفة ليه؟

لتفيق من شرودها وتصافح مالك وتسأله عن أخباره ليجيبها أنه بخير وأفضل من الأمس بكثير.. لم تعلم عن أي أفضلية يتحدث.. هل يشعر بتحسن في قدمه أم في نفسه جراء حديثهما بالأمس.. تناولوا الإفطار جميعهم وقام مالك ومصطفى لعمل الأشعة اللازمة التي طلبها الدكتور.. استغرق الوقت أكثر من ساعتين كانت كفاية لحور أن تتحدث مع مريم في كل شيء.. أخبرت هاجر أنها ستكلمها الآن لم تستطع أن تمنعها.. وقفت حور في الشرفة المطلة على الشارع وأخرجت رقمها وهمت بالاتصال بها:
-آلو.. ممكن أكلم الآنسة مريم؟

صوت امرأة كبيرة تسألها من هي لتجيبها بأنها صديقتها من أيام الجامعة.. ردت قائلة:

-هي نايمة أستني لما أصحيهالك .

تابعت حور مسرعة: لا خلاص يا ماما خليها نايمة بس لما تصحى قوليلها تكلم الرقم دا ضروري .

أغلقت الخط ورجعت منكسة الرأس لهاجر التي ظهر ضرس العقل لديها من الضحك قائلة:

-طبعا قفلت السكة في وشك ومكلمتكيش .

نظرت لها نظرة استغرب مما سمعت: وليه تعمل كده يعني.. هي بس نايمة ولما تصحى أمها هتخليها تكلمني.. وبعدين فهميني ليه متكلمنيش .
-واحدة عملت كده في أخويا.. هتكلمك عشان تسأليها عملت كده ليه.. أنا كرهتها أوي يا حور.. إنتي مش متخيلة مالك تعب بسببها قد إيه.. فتابعت حور قائلة:

-لا متخيلة وحاسة بيه أوي.. إنتي اللي شكلك متعرفيش أنا بحب أخوكي دا قد إيه.. يخربيت جمال أمه .

ترفع هاجر حاجبها ثم تقول: الحب فسد أخلاقك خالص.. لتجيبها هي بهدوء:
-قصدك خلاني أحس أني عايشة في دنيا لازم أكون فيها نص عاقل ونص مجنون الحياة مش هتمشي بس بالعقل.. وأخوكي الصراحة يتَّاكل أكل يا هاجر.

-طب لمي نفسك يا حبيبتي وتعالي نشوفهم عملوا إيه ؟!

ظلوا ثلاثتهم في انتظار خروجه من غرفة الأشعة.. خرج مالك وتبعه الدكتور.. أخذه مصطفى وأجلسه ليستريح وسأله عن النتيجة لم يجب..

لم يكن يعلم.. لم يخبره الدكتور عن شيء.. خرج مصطفى وترك هاجر وحور معه ليسأل الدكتور:

-خير يا دكتور.. الأشعة بيِّنت إيه.. مالك فيه حاجة؟

ابتسم الدكتور ثم قال: متخافش على صاحبك.. هو مبدئيًا كويس مفيهوش أي حاجة بس أستنى ساعة أو اتنين نطمن على نتيجة الأشعة أكتر .

شعر مالك بتحسن كبير بوجود عائلته كاملة بجانبه.. أخته وصديقته و حور تلك التي لا يعلم من ستكون في قاموس العائلة.. تلك التي حكي لها حكايته من أولها لآخرها ولا يعلم لماذا هي بالذات على الرغم من أنها ليست الوحيدة التي حاولت الاقتراب منه.. مرت ساعة تلو الأخرى واطمأنوا جميعًا أنه بخير لا يوجد أي قلق عليه.. وكتب لهم الدكتور على خروج.. قبل السادسة مساءً خرج الجميع من المستشفى قاصدين بيت مالك الذي افتقده كثيرًا.. خرج يتسند على مصطفى وعلى عكاز سيلازمه الفترة القادمة ليساعده على التحرك بين الغرف لأنه مُنِع من النزول من المنزل لمدة أسبوعين.. صعد مالك السلالم بأعجوبة.. جلس يلتقط أنفاسه.. أصبحت حور معه في كل مكان يتواجد فيه.. توطدت العلاقة بينها وبين هاجر كثيرًا أصبحتا لا تفترقان.. تعلم هاجر سبب هذا الارتباط وأن كل هذا من أجل عيون أخيها ومن حبها لأخيها أحبتها، استاذنت حور لتغادر فهي تحتاج أن تذهب للبيت لتبدِّل ملابسها وترتاح من مشقة اليومين الماضيين مودعة مالك وهاجر بعد أن قالت:

-مش هوصيكي بقى خدي بالك منه ولو احتجتي أي حاجة كلميني في أي وقت.. عامة أنا جايلك بكرة.. هتحتاجي حاجة أجيبهالك معايا.
ردَّ مالك مبتسمًا: هنعوزك متتأخريش بس يا حور.

كانت هذه الإضافة كافية ليتراقص قلبها.. غادرت وهي ممتلئة طاقة وحيوية لبدء حياة جديدة مع مالك من جديد تعلم وجهه الابتسامة بصدق وليست ابتسامة من وراء حجاب.. وصلت بيتها واخذت حماماً ليتخلل الماء تفاصيلها مزيلًا بقايا الوجع من حكايات مالك ومستقبِلًا حياة أخرى.. دخلت غرفتها تجفف شعرها المبلل.. انتهت وجلست على سريرها أرادت الانفراد بمالك الجديد.. بمالك الذي لأول مرة تشعر منه بحنين من كلمة واحدة فقط استطاع أن يعصف بقلبها.. لا تريد شيًئا أن يمنعها من النظر في صورته وتأمُّل ملامحه أكثر واكثر.. تلقي الهاتف من يدها جراء اتصال قام باختطافها من أحلامها للواقع مرة أخرى التقطت الهاتف بعد التقاط أنفاسها لتجد مريم تتصل بها.. ردت وهي عاقدة أمرها أن تنهي موضوع مريم إلى الأبد، تسألها عن كل شيء.. ضغطت على الزر لتجد صوتًا ناعمًا رقيقًا:

-آلو.. الرقم دا اتصل عليا النهارده، وقال لوالدتي أنك صاحبتي من أيام الجامعة، مين؟!

تعجبت حور من هذا الأسلوب وارتبكت ولم تكن تعلم من أين تبدأ ولكنها جمعت قواها:

-أنا اسمي حور.. إنتي متعرفنيش خالص.. بس أنا أعرفك كويس أوي.. أنا صاحبة هاجر أخت مالك.. وقع هذا الاسم على قلب مريم كرمح منطلق

اخترق حواجز صدرها ووصل للقلب مباشرة.. لم تكن تعلم أنها ما زالت تحبه رغم وجود دبلة رجل آخر في يدها .

-وعايزة إيه يا أنسة حور.. ألقتها في وجهها لتغلق هي الخط، ولكنها تلقت الصدمة وأردفت قائلة: عايزة أعرف حكايتك مع مالك.. عايزة أعرف عملتي فيه كده ليه.

سحبت كرسيًا قريبًا من النافذة وجلست عليه تتأمل في الفراغ، وساد الصمت بينهما حتى خيل لحور أنها أغلقت الخط، ولكنها ردت عليها بنبرة حادة:

-وانتي عايزة تعرفي ليه.. هيهمك في إيه؟!

-حبيته.. حبك في قلبه مانعه يقدر يعيش من جديد.. قوليلي عملتي فيه كده ليه عشان أقدر أصلح اللي إنتي كسرتيه.. هو مكانش يستاهل منك كده .

-أنا عايزة أشوفك .

أجابت حور في تعجب: نعم ؟

-عايزة أشوفك عشان أقولك أنا عملت كده ليه.. وعشان أقولك تعملي إيه.. لو فعلا بتحبيه.. هستناكي بكرة في الكافيه اللي جنب المستشفى العام الساعة عشرة الصبح.. سلام.

أغلقت الخط في وجه حور لتحرمها من التفكير في الأمر وإعطاء أي رأي.. اتصلت بسمر مسرعة لتأخذ رأيها في الأحداث الجارية فهي لا تعلم إن كان من الصواب الذهاب لرؤيتها فدائمًا تشعر أنها تحتاج من يحفِّزها لفعل الأشياء المهمة:

-آلو.. أزيك يا سمر عاملة ايه؟

-أنا كويسة.. إنتي اللي أخبارك إيه؟

-أنا مش كويسة ومش هطوِّل عليكي عشان عارفة أنك مش فاضية .
-مالك بس فيكي إيه احكيلي؟

-أنا كلمت البنت اللي كان مالك بيحبها وعايزة تشوفني بكرة .
-روحي طبعا.. هي مش هتاكلك.. اتكلمي معاها واعرفي منها كل حاجة.. وصدقيني هتحكيلك حاجات هو أكيد محاكهاش .

-تفتكري ممكن يكون مخبي عليا حاجة .

-مش مخبي.. بس أكيد هو هحكالك من وجهة نظره هو.. ويمكن يكون صادق في كل حاجة محدش عارف الحقيقة فين.. بس إنتي روحي اعرفي منها كل اللي إنتي عايزاه ومش هتخسري حاجة وزي ما قولتلك مش هتاكلك يعني.

أغلقت الهاتف بعد أن طمأنتها سمر قليلًا.. لم ترد أن تخبر هاجر بشيء الآن.. نامت بعد أن ظبطت المنبه على الثامنة صباحًا.. لتستيقظ وترتب نفسها قبل الميعاد.. وقبل الثامنة، استيقظت.. روتين يومي حتى التاسعة.. ارتدت ملابسها ونزلت لتنتظر صاحبة الوجع العظيم في حياة مالك.. أخيرًا ستراها لم تجرؤ أن تطلب هذا الطلب من مالك من قبل، ولكنها الآن سوف تراها وجهًا لوجه.. اتصلت بها لتؤكد الميعاد فأخبرتها أنها في الطريق.. دخلت حور الكافية وجلست في الانتظار.. اتصلت بها مريم لتسألها عن مكانها بالتحديد فتلاقت أنظارهما ثم اجتمعا على ترابيزة واحدة لتفاجأ كل منهم بالأخرى.. جلستا بعد المصافحة.. لتبدأ مريم الكلام معتذرة عن الأسلوب الذي اتبعته في الأمس معها، فأشارت حور برأسها أنها لم تنزعج من ذلك.. حكت لها حور عن علاقتها بمالك

بالتفصل وعن الوجع الذي تراه في عينه دائمًا بسبب حكاية قديمة.. كانت في هذا الوقت تلمع عين مريم بالدموع ولا تعلم السبب.. هل لفقدان مالك أم أنه اليوم ستكون لديه حبيبة تغنيه عن التفكير فيها.. هل هذه أنانية؟ إنها لا تريده لها ولا لغيرها.. ما هذا القلب.. سمعتها جيدًا وكانت تركز في المواضع التي تتحدث فيها حور عن مالك.. كانت تريد أن تراه بين كلماتها.. أحقًا افتقدته أم أنها تريد أن تحجر عليه ولا يكون لأحد من بعدها.. بعد أن انتهت حور من سرد قصتها من يوم القطار حتى الأمس لم تجد أي علامة لهفة على وجه مريم التي استطاعت بمهارة إخفاء اللهفة والشوق لحبيب لن يتكرر مرة أخرى.. نظرت مريم لحور نظرة مطوَّلة تحسدها على هذه الفرصة التي بين يديها للاستحواذ على قلب مالك أخذت نفسًا ثم قالت:

-نفسك تبقى أم؟

نظرت لها في استغراب تام، ولم تكن تفهم ما تقصده من كلماتها الموجزة ولوهلة شعرت أن مالك مصاب بشيء يمنعه من الخلفة وهي هربت منه بسبب ذلك ولكنها ردت قائلة:

-مش فاهمة.. يعني إيه أصلًا ودا دخله إيه باللي بنقوله؟

عقبت على كلامها:

-أنا كان نفسي أبقى أم ومالك مكانش هيقدر يخليني أبقى أم .

كاد الشك أن يؤكَّد لديها أن مالك يعاني من شيء يمنعه من ذلك، ولكنها بين نفسها قالت وحتى إن كان كذلك هل لها أن تتركه وتعاقبه على شيء بيد الله تكلمت قائلة:

-أنا مش فاهمة ياريت تشرحيلي .

أخذت مريم تشرح لها يوم لقائهما وأسباب مرضها ومن عواقب هذا المرض أن فرصة الإنجاب ضعيفة جدا.. ومالك لا يملك الكثير ليجري لها جراحة كبيرة خارج مصر لتكون أمًّا في يوم من الأيام.. مالك يستطيع أن يكوِّن بيتًا بسيطًا هادئًا مستقرًا، ولكن لا يستطيع أن يسفِّرها للخارج لإجراء عملية جراحية خطيرة وعالية الثمن لتصبح أمًّا.. أوضحت لها أنه أيضًا كان سيُحرَم من نعمة الإنجاب وأنه اكتفى بها ولكنها عقَّبت:

-بس أنا مقدرتش .

سألتها إن كانت هي سليمة ومالك الذي يعاني من المرض.. فطأطأت رأسها ولم تجب، سألتها مرة أخرى:

-ليه معرفتيهوش كل حاجة وسيبتيه يواجه مصيره من غير خيانة وجرح؟
لتجدها بكل وقاحة تجيب: بحبه ومكنتش قادرة أعيش من غيره .
-أومال رُحتي لغيره ليه؟!

-تامر شاب كويس ومستواه المادي كويس وباباه دكتور هيقدر يخليني أسافر أعمل العملية برا من غير أي مشاكل،، مالك كان هيبقى عاجز قدامي وأنا عايزة أبقى أم.

زاد الغليان في رأس حور ثم قالت:

-وعايزة تبقي أم على حساب حياة بني أدم كل ذنبة في الدنيا أنه حبك.. إنتي مش متخيلة حياته من بعدك عاملة ازاي.. حياته من ساعتها واقفة.. إنتي ازاي عايشة كده.

لم تنظر لها، فالحنين لمالك وأيامه يملأ صدرها، فأجابتها قائلة:
-ومين قالك أني عايشة.. مين قالك أن حياتي ماشية.. أنا حياتي واقفة أصلًا بس أنا بمثل أني كويسة.. أنا خسرت نفسي لما عملت كده في مالك..

وخسرت حياتي من بعده.. أنا محبتش في حياتي غير مالك.. الحياه كلها كانت مالك وفضلت مالك.. وأن كنت أنا عايزة أرجع.. أنا عارفة إنه مستحيل يرجعلي بعد ما شافني بعنيه مع واحد تاني.. مالك معايا كل يوم وفي كل وقت.. مش هقولك إني مرتبطش بعديه.. لا ارتبطت واتخطبت كمان.. بس عشان أكمل مسلسل القوة اللي بمثله على الكل.. مفيش حد هيحب مالك قد ما حبيته ولا حتى أنتي.. بس هو ممكن يحبك إنتي أكتر مني لأنك هتاخدي بالك منه.. أنا طلبت أشوفك عشان أقولك حاجات بسيطة.. مالك أبسط مما تتخيلي.. راجل جدًا وهيقدر يوفرلك أحسن حياة ممكن تتخيليها.. مالك دا أرجل واحد شُفته في حياتي لأنه قِدِر يشيل مسؤولية بيت كامل وهو لسه عيل صغير.. مالك ممكن يبقى زي الخاتم في صباعك بكلمة واحدة.. بس أنا عايزة أطلب منك طلب.. أبقي طمنيني عليه كل فترة وأبقي عرفيني يوم فرحكوا أمتى عشان عايزة أحضره .

نظرت لها باستنكار كامل، شعرت أنها هنا أيضًا تكمل مسلسلًا برعت في بطولته.. تريد أن تتلبس روح الضحية لتبين أنها مازالت تحبه.. لم تصدقها إلا في شيء واحد.. أنها دهست قلب مالك من أجل أن تصبح أمًّا فقط.. كيف لقلب يحب أن يفعل هذا فيمن أحَب.. غادرت دون مقدمات لتتركها تكمل هذا المسلسل وحدها فهي في هذه المرة لم تستطع أيضًا أن تكون البطلة.. لم تستطع مريم هذه المرة أن تثبت لنفسها أنها ضحية شعور الأمومة.. علمت حقا أنها خائنة.. شعرت حور بالانتصار للمرة الثانية.. الأولى كانت عند سرد مالك الأحداث لها بين يديها.. والثانية عندما أيقنت أن مريم لا تستحق خُمس هذه المشاعر التي يكنها لها مالك.. ظلت مريم تراقبها حتى اختفت فغادرت هي الأخرى لحياتها التي

اعتادت عليها منذ أن تركها مالك.. تعلم أن شهامته ورجولته تمنعه من الاتصال بها أو محاولة رؤيتها.. وأنه رغم حبه لها تركها لأنه يحبها ولا يريد أن يكرهها .

استيقظت هاجر على رنين هاتفها لتجد خطيبها يوقظها في تمام العاشرة:
-اصحي يابت بقى وحشتيني .

لتجيبه بعين واحدة:

-بت في عينك.. يلا امشي من هنا عشان أقوم أفطَّر مالك.

-أنا هفطر معاكوا.. أنا جاي في الطريق سلام .

الله يسامحك يا مالك هتجوزني واحد مجنون.. حاولَتْ أن تستفيق من إرهاق أسبوع الخطوبة وحادثة مالك.. ذهبت غرفته لتطمئن عليه لتجده مستغرقًا في النوم .

اتصلت بحور تطلب منها المجيء.. أخبرتها أنها في الطريق.. وصل مصطفى وحور في نفس التوقيت وتقابلا على درجات السلم.. كان قد استيقظ مالك وحضَّرت هاجر الإفطار.. دخل مصطفى محمَّلا بالبيبسي والشيبسي الذي يفضلهما دائمًا مالك.. لتنظر له حور بعنف: الحاجات دي غلط عليك بالذات أنك هتفضل قاعد كتير وكده هتتخن وهتبقى بكرش .
ضحكت هاجر فضحكوا جميعًا.. وبدأت الحياة تدب في المنزل من جديد .

* * *

حاول الإنصات لمن يحاولون مساعدتك.. فربما يملكون طوق نجاتك .

(10)

بعد مرور ستة أشهر..

حاولت أن تنزع ذلك الحزن الدفين المستقر داخل قلبه.. استطاعت شيئًا فشيئًا وكان هو يساعدها على ذلك بعد ما عاهد أخته أن يستقر معها.. كان كل ليلة يستغرق قبل النوم الكثير من الوقت لإقناع نفسه المجادلة أن حور الآن هي الأنثى التي كسرت القاعدة وتخطت كل الحواجز.. استطاعت أيضًا أن تبني ذكريات بداخل قلبه.. مرت الأيام عليه يحاول أن ينتزع مريم بكل تفاصيلها ولكنه لم يستطع انتزاعها كليًا.. كان يعلم ذلك وحور أيضًا تعرف أنها لن تستطيع أن تنسيه الماضي بأكمله، ولكنها نجحت في جعله يتخطى مرحلة الصمت والركود العاطفي.. ظل بداخله جزء يذكِّره بها رغم حرقه لآخر صورة لها عنده.. مرت عليه الستة أشهر بصعوبة يريد نسيان ماضٍ أليم والعيش في حاضر على الأقل يكون مُرضيًا ويحلم بمستقبل أفضل.. ذلك الشاب الذي لم يعش يومًا لنفسه يوم ما تخيل أن أحدهم يحيا من أجله خاب ظنه بها وأردته قتيلًا في معركة خاضها بكل قوة من أجلها.. فقد بعدها الثقة في جنس الفتيات جميعهن.. استطاع الكائن الرقيق المسمى بحور وهي لا تقل شيئًا عن حور الجنة التي يهبها الله مكافأة لعباده الصالحين في الدنيا.. فهو يؤمن أن الله كافأه بها في الدنيا جراء تحمُّله لكل هذه المسؤوليات في حياته.. علم أيضًا أن الخيط الأسود الذي كان يظنه سيظل ممتدًا لآخر الحياة

وصل أخره وبدأ حياة من جديد بخيط أبيض ناصع.. وأن بعد كل ليلة مظلمة هناك حياة جديدة.. وبموت كل أم هناك جنين يدخل الحياة.. بدأت هي تهتم به اهتمامًا من نوع آخر تقتحم حياته تخترق الحواجز التي شيدها على قلبه ليحميه من الزمن والإناث خصوصًا.. لا يعلم أنها تريد أن تسعده.. لا يعلم أن حياتها لا تساوى شيئًا بدونه.. حياتها التي لم تتحرك إلا بعد رؤيته.. حياة قاتمة روتينية لم تكن تتوقع أنها ستقابل هذا الشخص الذي غيَّر مجرى حياتها.. ذات يوم من انغماسه في الحياة معها، تذكر مريم فنبهته نفسه مرة أخيرة:

-حاول تبكي ونزل كل الدموع.. حاول من النهاردة متكونش موجوع. استطاع أن يجتاز مراحل كثيرة ليصل معها لبر الأمان.. اعترفت له بحبها فلم يمنعها هذه المرة.. تركها تحبه ليحبها من مشاعرها.. يعلم أنه لن يحبها بين يوم وليلة، ولكنه يحاول أن يبادلها نفس الشعور نفس الاهتمام وتحاول معه هاجر أن تسهل عليه وتطلعه على الجديد أول بأول.. انتهت من تحضير العشاء لأخيها ليسألها:

-وهي عاملة إيه دلوقتي ؟

لتستخف هي دمها كعادتها: ومين هوّن عليها الوقت .

ليعيد سؤاله بحزم: هي عاملة إيه دلوقتي يا هاجر؟

-كويسة يا مالك بس أعمل حسابك بالشكل دا كده البت دي هتضيع منك.. البت حلوة ومحترمة وكل يوم يجيلها عريس.. وهي بترفض بحجة إنها لسه بتدرس.. إنما أمها مش مقتنعة وابتدت تعاملني وحش عشان عارفة أن البنت بتحبك.. أنت مش ناوي تخطبها بقى؟

كان قد وضع قطعة خبز بها جبن في فمه وبعد أن انتهى من تناولها أجابها:
-تفتكري جه وقت الموضوع دا يا هاجر.. أنا خايف مقدرش أكمل وأظلمها معايا .

-ياعم البت راضية بكل اللي تقول عليه، وعارفة أنك مش تمام أوي ولسه تعبان بس وجودها جنبك هيخليها تعرف تساعدك.. الصراحة مفيش واحدة تستحمل اللي هي استحملته معاك.. أنت دوست عليها أوي.. هي شارياك أوي وأنت قسيت عليها وأنت مش كده .

-أنا عمري ما كنت كده وانتي عارفة.. عامة أنا هكلمها قبل مانام وأتفاهم معاها.. بس قوليلي عاملة إيه مع مصطفى؟

-مصطفى خلَّص الشقة زي مانت عارف وأهله عايزين يحددوا الفرح وتقريبًا في خلال شهر بس أنا مش موافقة.

نظر لها بتعجب:

-ليه يا بنتي.. هو إنتي مش حبتيه ولا إيه؟!

احمر وجهها رغم أنها ومالك أصدقاء جدًا إلا أنه أحرجها بذلك الكلام فتغاضت عن ذلك الحياء ثم أكملت: أنا مش هحدد ميعاد فرحي غير لما أفرح بيك الأول.. ماهو مش معقول أتجوز وأسيبك هنا لوحدك .
-لالالالالالالالا اوعي تفكري بالشكل دا.. إنتي كده مش هتتجوزي .
-خلاص خلينا قاعدين في وش بعض كده لغاية ما أموت بالحسرة عليك .
شعر بالذنب تجاهها وتجاه حور تلك الفتاة التي لم يمنعها شيء من الوقوف بجانبه في محناته .مضغ آخر لقيماته وطلب منها أن تحضر له الشاي في البلكونة، ثلاث معالق سكر تموين كعادته.. ضحكت هي على

كلامه في حين أنه كان يخرج رقم حور من هاتفه ليتصل بها وهو يراقب حركة المرور.. لتجيب هي بنبرة صوت يملؤها العشق:

-وحشتني بقالي يومين مشوفتكش .

تعوَّد هو منها الفترة الأخيرة على هذا النوع من الاهتمام ويحاول أن يرده لها.. يعافر ويجاهد كأنه يحمل فوق ظهره الكثير: وانتي كمان .

-عايزة أسمعها يا مالك.. بس لو مش حاسسها متقولهاش.

يشعر بحنين لمريم في كل كلمة يقولها، ولكن هذه المرة شيء بداخله يخبره أنه افتقدها حقًا وإن قالها اليوم لن تكون مردودًا لكلامها فقط، فأجاب في ثقة وبحنيته المعهودة: وحشتيني.

كانت هذه الكلمة كفيلة بإطلاق زغاريد قلبها ونصب أعمدة الإنارة فيه للاحتفال بمالك.. فهي في انتظار هذه الكلمة من شهور.. ليست الكلمة ككلمة إنما هو ذات يوم أخبرها.. أنه لن يخرج منه كلمة إلا وإن شعر بها وبالفعل رأت معه أيام صعاب كان الحنين يقتلها وهو لا يستطيع أن يهدئها بكلمة يعرف أنها من الممكن أن تداويها.. ولكن اليوم قالها دون تردد ومن الممكن أن يدب قلبه حبًا لها.. وستحصل هي على هذه المشاعر العظيمة التي تسكن داخل طيات صدره.. أردفت هي قائلة: أنا مش مصدقة نفسي أخيرًا نطقت .

مالك متحاملًا على ذكرياته وممسكا بحاضره: وبحبك كمان يا حور وقوليلهم في البيت أننا جايين يوم الخميس عشان نخطفك منهم بقى .
لم تشعر بنفسها إلا في أحضان كلماته: وأنا بحبك أوي يا مالك ومش متخيلة أن خلاص احنا هنكون سوا.. أنت متاكد أنك في كامل قواك

العقلية .

شعر مالك بسعادة غامرة جراء ما لاحظه من سعادة في كلماتها فأجابها: يلا بقى احضني المخدة ونامي احلمي بيا زي كل يوم وعدي عليا في الشغل بكرة عشان عايز أقولك على حاجة.. بس عدي على المغرب عشان أقفل ونمشي سوا.

كانت سعادتها لا توصف.. لم تكن تريد أن تغلق الخط معه، ولكنها تعلم أنه يعمل من الساعة الثامنة حتى الساعة الواحدة ظهرًا في إحدى المصالح الحكومية ومن هناك على المحل حتى المغرب.. مايقارب من اثنتي عشرة ساعة يوميًا.. تركته لينام ونامت هي في أحضانه كالعادة..أغمض عينيه محاوِلا تثبيت حور بين جفنيه.

* * *

مرَّ اليوم على مالك رتيبًا بين زجاجات العطور وخامات تكوينها.. دخل عليه مصطفى عاقدًا حاجبيه مضطربًا: ماهو أنت تشوفلك حل في أختك دي.. مش موافقة أن الفرح يكون آخر الشهر وأنا أمي زهقت مني بقى وعايزة تخلص مني وتجوزني كل حاجة جاهزة.

ربت على كتفه ثم قال: متقلقش سيب الموضوع عليا.. بس أنت مستعجل كده ليه ياض راعي أنك بتتكلم على أختي .

نظر له ببلاهة: ياعم هو أنا هرافقها.. أنا هتجوزها .

-هضربك ياض أنت.. والله لو محترمتش نفسك أخليها تنشف دماغها .
-لالالالا خلاص ياعم أنا هبوس إيدك بس خليها توافق .

دخلت حور عليهما المحل ليغمز له مصطفى ثم يستأذن بالانصراف.. نظر لها نظرة مختلفة عن المرات السابقة ثم قال: تحبي نخرج فين النهاردة.. تحبي تتعشي فين؟

دخلت هي وراء المكتب لتقف بجانبه: أنا مش جعانة.

ليرفع حاجبه: وأنا اللي مجوَّع نفسي عشان ناكل سوا..

لتعقب هي على كلامه: أنا اللي حرمت نفسي من العشا عشان تستعشي.
أمسك هو بزراعها: يلا يابت من هنا.. روحي .

ضحكا سويًّا.. ضحك من قلبه كثيرًا.. وخرجا يتمشيان حتى وصلا المطعم.. مطعم جديد لأول مرة يزوره.. يريد أن يبني ذكريات جديدة معها.. ودار الحديث بينهما يحمل حناناً بالغاً.. اشتياق منه لنفسه التي تجيد الحب رغم وجعها.. واشتياقها لفارس يقتحم حياتها.. حاول أن ينتقي كلماته حتى لايقع في فخ الذكريات.. أخبرها أنه يريد مساعدتها أكثر من السابق في اجتياز هذه الفترة.. وافقت بشدة على اختطافه من ماضيه.. كانت تحاول منذ زمن ولكن الوضع يختلف الآن.. فهو يريد.
أمسك يديها ليشعرها بدفء قلبه ثم قال: أنا عايزك تتأكدي أني مش هظلمك وإن شاء الله أكون مخلصلك حتى في خيالي.. أنا اتظلمت وعارف يعني إيه إحساس الظلم.. وأنا عمري ما هظلمك.. إنتي عملتي عشاني حاجات كتير وانا دلوقتي متاكد إني بـ...

عجز لسانه عن النطق وكأنه مراهق يخجل من أن يصارح زميلته في الفصل بها، مسكت هي يده ووضعت عليها قبله جعلته أكثر جرأة منها ليقبّلِها في كفيها:

-أنا بحبك يا حور.. حبيت حبك ليا .

كاد أن يغشى عليها من الفرحة.. لكنه تابع قائلًا:

-أنا هنا النهارده عشان اوعدك اني هفضل طول العمر جنبك . كان يعلم جيدًا أن هذا ليس سهلًا على الإطلاق ولكنه قبِلَ التحدي.. ولأول مرة يدخل في تحدٍّ مع أقرب الناس له.. يدخل تحديًا أمام)نفسه، ومريم (ويراهن أنه سوف يكسب هذا التحدي لأن هذه المرة تقف في ظهره.. زوجته.. نعم زوجته فهو طلب منها أن يذهب لوالدتها ليقنعها أن توافق على الزواج في أقرب فرصة ليتزوج هو وأخته في يوم واحد.. غادرا المكان بعد وصلة اعترافات بالمشاعر والنظرات المشتاقة منذ شهور عديدة متذكرة هي أول يوم رآته فيه.

اتصل بوالدتها ليأخذ موعد منها يوم غد الخميس.. لترحب بقدومه وتخبره أنها في انتظاره.

اتصل بمصطفى ليحضر معه هذا اليوم المهم.. فرح كثيرًا لهذا الخبر.. جلس مع أخته ليخبرها أنه اتفق مع حور على كل شيء .

مرَّ نهار الخميس مزدحمًا بالترتيبات الخاصة للقاء.. ذهب مصطفى ليحضر الجاتوهات.. وتقابلوا في البيت على صلاة المغرب وعلى العشاء نزلوا سويًّا بعد أن اتصلوا بهاجر ليتأكدوا أنهم في انتظارهم في بيت حور. جلس مع والدة حور وحكي لها عن ظروفه، وأنه يتيم وأن حور ستكون له

زوجة ووالدة، في نفس الوقت دخلت حور عليهم بعصير الفراولة الذي وصاها من أمس عليه وأنه يحبه وسوف يحبه أكثر من يديها.. أجلستها هاجر التي تولت مهمة تهدئتها.. تناقشت والدتها في كل الأمور.. علمت منه أنه سيسكن في منزل والدته بمفرده لأنه يتيم وهو موظف في إحدى المصالح الحكومية وعنده مشروعه الخاص.. وافقت وقرأت الفاتحة لأنها لن تجد لابنتها أفضل منه أخلاقًا.. وكما قال هو ستكون والدته وزوجته.. وهي تعرف هاجر جيداً المعرفة وتعلم أن أخاها لا يقل عنها رقيًا وأخلاقًا أبدًا.. مدَّ يده في جيبه وأخرج خاتمًا وألبسه للعروس وقبِّل يدها أمام والدتها لتشعر هي بأنها الأميرة في هذه الجلسة... غادر هو بعد ذلك ليرتب نفسه لحياة توجد بها حياة.. حياة بها حور.. تمر الأيام على مالك وهو كل يوم في مكان.. يوم عند النقاش ليغير ديكور الشقة لتليق بالعروسة وذوقها.. ويوم عند الكهربائي لإحلال وتجديد الكهرباء في المكان .

مرَّ الشهر عليه كأنه سنة من الجهد والكلل.. كل هذا ليشعرها بلهفته عليها.. كل هذا لتعلم أنها بالفعل تتوجت على قلبه.. انتهى من الإعدادات اللازمة وجلس مع هاجر ومصطفى وحور ليحددوا ميعاد الفرح المناسب للجميع.. استرق النظر لعين حور ثم مال عليها وهمس في أذنها قائلًا:
-من النهاردة مش هفكر غير في حاجة واحدة بس.. أنك تبقي ملكة على كوكبي، الثقة اللي هديهالك هتكون سلاح ذو حدين.. بس نفسي نبقى قد حبنا لبعض.. بحبك.

عكَّر صفوهما صوت هاجر ومصطفى اللذي علا في المكان:

-مش وقت نحنحة ياعم أنت.. الفرح امتى بقى؟

ليضحكا سويًا ثم يرد عليه: الصراحة مش عارف أنت مستعجل على إيه؟
-أنا لو متجوزتش في خلال شهر أمي هتطردني من البيت وأبويا هيقيم عليا الحد.. أبويا عايز يفرح بيا يا مالك.. أنت عارف أنه تعبان.
نظر مالك لحور ثم لهاجر ثم رجع برأسه للخلف: هنعمل فرحنا سوا أنت على هاجر وأنا على حور في خلال 3أسابيع وأهو هاجر تعرف تاخد أجازة من شغلها وحور يكون لسه بدري على آخر سنة دراسية اللي هتاخدها في بيت جوزها إن شاء الله.. احنا عندنا كام مصطفى وهاجر يعني كادت أن تتساقط أسنانه من الضحك وأراد أن يحتضن هاجر لولا وجود أخيها ونهيه عن ذلك قائلًا: لما تتجوز أبقى أعمل اللي أنت عايزه.. ولِم نفسك بدل ما أزعلك.

تعالت الضحكات على أرض المنزل الذي فقد هذا الصوت من فترة كبيرة.. أكمل مالك قائلًا: بكرة بعد الشغل هنروح أنا وانت لأم حور عشان نتفق معاها على ميعاد الفرح ونطلع من عندها على أبوك نقوله على ميعاد الفرح لأنه ما هيصدق يخلص منك.

احمر وجها هاجر وحور عند سماعهم هذه الأخبار.. خجل الأنثى سيطر عليهما رغم وجودهما مع من أحبتا.

مصطفى يشبه مالك كثيرًا.. غلبت الرجولة كثيرًا على تصرفاتهما.. بدأ قلبه يدق لها ولكن ليس كما يريد هو.. يريد أن يصبح بدون ذاكرة لتحفر هي برقتها ذكرياتها معه.. انتهوا من يوم شاق وغادر مصطفى وذهب مالك ليوصل حور لمنزلها.

تشعر حور الآن أنها تمسك بيديها نجوم السماء وهي جالسة بجواره في السيارة.. يكمل مالك شعورها بإمساكه بيديها ووعدها أنه لن يفلتها أبدًا.. وقف تحت بيتها ليودعها للقاء قريب:

-يلا بقى اطلعي وأنا هروح.. وسلميلي على ماما .

نظرت له بعين حانية: طب ما تطلع تسلم عليها وبالمرة تتعشى معانا . وضع يده على فمه ليداري ابتسامته ثم أردف قائلًا: يلا يابايرة من هنا.. اطلعي نامي واصحي بدري عشان تجهزي الأكل أنا هاجي أتغدى معاكوا عشان أقول لأمك على موضوع الفرح.. لم تتمالك ولم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك ثم قالت:

-بايرة.. طب أنا مش موافقة عليك بقى.. وهطلع أقول لأمي كده ووريني بقى هتتجوز مين؟

ليسمعا صوت والدتها من الشرفة: يلا اطلعي يابت متنفعش الوقفة دي . ليضيف على كلامها: شُفتي جبتيلنا الكلام ازاي.. ويرفع رأسة لوالدتها قائلًا:

-أزيك يا أمي.. والله عمال أقولها اطلعي ومش راضية .

قالت: اطلع اتعشى معانا يا ابني مينفعش تمشي من غير ما تأكل . قال: ربنا يخليكي يا أمي أنا جاي بكرة إن شاء الله.. تصبحوا على خير . أعطى ظهره للمنزل واستقل أول ميكروباص مرَّ بجانبة وأثناء الطريق طاردته كالعادة ذكرياته مع مريم.. أراد أن يبدلها بحور ولكنه لا يستطيع.

أنت غريب يا مالك.. عايز إيه تاني عشان تنسى؟

-مش عارف أنسى.. حتى لو معاها ناسي بكون معايا فاكر .

-أنت مش ظالم ومش هتعرف تكون كده .

-أنا بدأت أحبها .

-كداب .

-لا مش كداب .والله بقيت بفرح وهي معايا .

-مش كفاية.. انسى يا مالك انسى .

-حاضر.. قالها فور انتهائه من حديثه مع نفسه بصوت مسموع من الركاب مما جعلهم يشكون في قواه العقلية وأنه يكلم نفسه.. ضغط على أسنانه ليوقظ نفسه من هذا الوهم وليقنع نفسه أنه بالفعل يحب حور.. وصل لمنزله ليجد هاجر نائمة.. دخل غرفته ونام كعادته بعد أن اطمأن عليها وأعطاها من الاطمئنان ما تريد .

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، استيقظ على صوت رنين الهاتف لينزعج هو بعد أن التقط نظارته ليرى ذلك الرقم الذي حفظ شكله وأرقامه بالترتيب لم ينسَه وإن كان مسحه من آخر يوم اتصل بها فيه..

"مريم "..

ترك الهاتف جانبه ولم يرد وظل مستيقظًا يلوم نفسه لأنه لم يرد عليها وتارة يقنع نفسه أنه فعل الصواب.. "بس هي وحشتني "محدثًا نفسه بهذه الجملة وبعد أقل من عشر دقائق من المناوشات الداخلية بينه وبين نفسه عاود نفس الرقم الاتصال.. أمسك الهاتف ولم يرد سريعًا.. وقبل انتهاء الرنين ضغط على الزر ليسمع صوتها من وراء حجاب:

-صحيتك

خفق قلبة سريعًا بعد أن سمع صوتها سرعان ما حاول أن يتصنع النوم:

-اه.. مين معايا .

لتجيب هي في ثقة: أنا مريم .

تعمَّد السكوت ولم يرد عليها، ولكنه كان يريد احتضان اسمها وكلامها.. لتكمل هي:

-عامل إيه يا مالك.. كويس؟

زادت نبضات قلبه وزاد معها توتره حاول التماسك ومنع دموعه من التساقط:

-الحمد لله كويس.. إنتي اخبارك إيه؟!

-أنا مش كويسة يا مالك.. وحشتني

نزلت الكلمة على قلبه كالصاعقة ولكنه تماسك ثم قال:

-ألف سلامة مالك بس فيكي إيه.. هو تامر مزعلك في حاجة؟ لم تكن تتوقع هذا الرد على الإطلاق.. ولا هو أيضًا فهو حقا يفتقدها.. كانت تعلم أنها تمتلك قلبه حتى الآن .

-لا خالص.. دا حتى فرحنا قريب أوي .

-مبروك.. يارب أشوفك سعيدة يارب .

حاولت أن تصدمه ليتوتر أكثر وتشعر في نبرة صوته بما تريد.

-أنا عايزة أشوفك.

أصابته بخنجر في مؤخرة رأسه عندما طلبت رؤيته حاول الهروب منها، ولكنها صممت .

-أشوفك لآخر مرة .

وافق مالك على المقابلة، أخبرته أنها في انتظاره في نفس المكان في الميعاد الذي تعودا على اللقاء فيه دومًا.. وكعادتة وصل قبلها ينتظرها ولمحها وهي تدخل المكان ولكن ليس بإشراقة كل مرة أو أنه لم يعد يراها مشرقة كعادتها.. دق قلبه لحضورها، ولكن ليس ككل مرة.. دخلت وجلست أمامه تترقب أن ترى في عينه لمعة كل مرة.. لم تكن موجودة جلست تراقبه تداعب عينيه بعينيها ولكنها لن تظفر بما تريد بدأت كلامها:
-وحشتني يا مالك.. تعمد ألا يجيب.. ثم قال: أخبارك إيه؟

عاندت هي الأخرى ولم تجب ثم قالت: حور عاملة إيه؟ !

أصابته الدهشة ولكنه يعرفها جيدًا ويعلم ما يدور في رأسها ولن يمكنها من ذلك .

-كويسة.. فرحنا قريب برضو.

-كانت جاية تسألني إيه اللي حصل بينا وليه سيبنا بعض .

على عكس توقعاتها وتوقعاته هو الآخر.. لم يكن يعلم أنه سيفرح بهذا الكلام.. تحملت هي الكثير وأخفت عنه تلك الفعلة لأنها تحبه ولا تريد أن تزيد من أوجاعه ولكنه أجاب:

-ماهي كانت قايلالي إنها هتشوفك.. أنا اللي قولتلها تعمل كده.. أنا حبيتها من قلبي وهي مكانتش مصدقاني لما قولتلها أن اللي إنتي عملتيه يخليني

أنساكي من تاني يوم سيبنا بعض فيه.. كانت مفكرة أني لسه.. وسكت ولم يكمل...

نزلت هذه الكلمات عليها كقنبلة ذرية فتكت بها وبمخططتها وبما كانت تنوي.. لكنها لم تتوتر

ولم تدمع.. هذه القلوب لا تبكي لأنها حقًّا لم تحب .

أنهى كلامه سريعًا مخيِّبًا آمالها:

-أنا مينفعش أتاخر أكتر من كده.. إنتي عايزة حاجة تاني؟

أجابته: حبيتها يا مالك.. أنا أكتر واحدة أعرفك لما بتحب.. يا بختها بيك .
لم ينتظر ليسمع أكثر من ذلك.. ولكن قبل أن يرحل دار بين عينيهما حوار هزَّ كيانها:

قالت له بعين ولسان لم ينطق: هل ستعيش هنا بجانبي ؟

أجاب بعين يملؤها الحنين لشيء مفقود:

-لا هناك.. بجوار أحلامي وآمالي وذكرياتي التي رحلت وترفض العودة .
احتضنت عينيه بحنان قديم لم يعد يراه الآن بها:

-بإمكاننا صنع ذكريات جديدة هنا .

زاغ بعينيه عنها لأنه بالكاد متماسك:

-وهل بإمكانك إحياء ما مات !!

غادر وبمجرد أن أعطاها ظهره.. ارتسمت ابتسامة على شفتيه جراء ما فعلته حور ومن حبها له لم تخبره بهذا.. علم جيدًا أنها جديرة بقلبه وأنها

تستطيع أن تحميه حتى من نفسه التي إلقته في التهلكة قبل ذلك.
ذهب لمنزله بعد أن طوى صفحة مريم.. دخل سريره واتصل بحور ولم يحكِ لها ما حدث.. غاص في نومه وهو يعرف ما يريد الفترة القادمة.. استيقظ هذه المرة على مكالمة من حور.

-اصحى يا حبيبي.

لأول مرة يدق قلبه لسماع هذه الكلمة منذ وقت طويل.. فرح هو لوجودها بجانبه وحبها الجارف ومواقفها التي تثبت كل يوم إنها خير حبيبة ليرد عليها:

-صحيت يا حور.. ربنا ما يحرمني من وجودك جانبي

دق قلبها أكثر وأكثر لسماع هذه الكلمات منه ولم تشعر بنفسها إلا وهي تمسك الهاتف وتقبِّله من الفرحة.. سمع هو هذه الحركة ولم يعقب كي لا يشعرها بالحرج.

أنا هقوم أصلي وأنزل أروح الشغل وهعدي عليكم آخر النهار؟

* * *

بعد ثلاثة أسابيع الساعة الخامسة عصرًا.

-ألو.. عارفة لو حطيتي مكياج هخليكي تمسحيه في الفرح قدام المعازيم.. إنتي قمر أصلًا من غير حاجة.. وينظر لمالك ثم يقول: مسيطر أنا ها؟ مالك: استنى أنت كده والنبي ياعم.. قام من على كرسي الحلاق وأمسك بالفوطة بعد أن أخذ منه الهاتف وضربه بها ثم بدأ يتكلم:

-بت يا هاجر إعملي اللي انتي عايزاة وحطي اللي يعجبك.. بس متأفوريش.. اديني حور من جنبك.. ثم اتجه لمصطفى: إنت فاكر عشان هتتجوزها تكلمها كده.. أنا اروح فيك في داهية.. ليسمع صوت حور من بعيد ثم يرفع الهاتف مرة أخرى:

-عاملة إيه دلوقتي.. كله تمام؟

-أه يا حبيبي كله تمام والمكياج خفيف أوي زي ما طلبت .

طلب منها أن تكرر ما قالت ثم فتح السماعة الخارجية وسمع مصطفى ما قالت ثم انتهى من الكلام معها ونظر لمصطفى مرة أخرى وهو بين يديّ الحلاق ثم قال: السيطرة بالحب والعقل أحسن بكتير من الغباء اللي عملته دا.. خليها تسمع كلامك بعد ما تقتنع بيه مش تسمعه عشان بس ترضيك.. خليك راجل معاها مش عليها .

لم يعقب مصطفى على كلامه لأنه دومًا يتعلم منه.. أكمل مالك قائلًا: دايمًا حسسها إنها لو عملت أي حاجة أنت مش هتضايق بسبب حبها للحاجة دي بس، دايمًا وجِّها خليها تشوف في عينيك غيرة وخوف.. حبها.. حبها يامصطفى وبس.. نظر له الموجودون في المكان باحترام بالغ شعر هو بالخجل وجلس مرة أخرى لينتهي من تصفيف شعره.. بعد أن خرجوا وفي طريقهم للكوافير مال مالك على مصطفى قائلًا:

-متزعلش من كلامي يا درش.. أنا بس اتعصبت من الطريقة اللي كنت مفكر نفسك بيها صح.. أنا عارف أنك بتحب أختي بس أنا مش عارف ليه قولت كده ولا وقته ولا مكانه أنا عارف.. مبروك يا مصطفى وخد بالك من اختي .

احتضنه مصطفى قائلًا: في عينيا والله يا مالك متقلقش .

أخذ كل منهما سيارته التي استأجرها للزفاف.. ووصلا في الميعاد .

أمام الكوافير أقارب مصطفى جميعهم وخالة مالك ، أقرباء حور ووالدتها.. خرج من الكوافير حوريتان من الجنة، واحدة منهما لمصطفى والأخرى من نصيب مالك العريس المنتظَر.. فتح لها الباب وأدخلها السيارة لتقف هاجر لمصطفى بالمرصاد:

-افتحلي الباب ياعم أنت كمان.. اتعلموها بقى .

نظر مصطفى لمالك ثم لهاجر: حاضر يا ستي.. عروسة بقى اتنكي براحتك .

أخذوا يتجولون في الشوارع والزفة يتوسطها سيارات أصدقاء مصطفى والعائلتان.. وصلوا لقاعة الأفراح ليجدوا صفين من الشباب يرتدون زِيًّا موحدًا يتوسطهم رجل أربعيني ذو جلباب بلدي واسع ممسك بمزمار.. وبدأت السهرة التي رقصوا فيها كثيرًا وضحكوا فيها من قلبهم.. جلسوا جميعًا حول المأذون وكتب الكتاب قبل أي شيء.. دقت الطبول ووابل من المعازيم صافحوا العرسان.. وبعد أن أشار للشاب الذي يقف على الـ "دي جي "ليقوم بتشغيل أغنية "تتجوزينى".. وبعد أن انطفأت الأنوار ليستمع الناس للأغنية ويسرق هو من عمرها لحظات ومع أول كلمة من الأغنية رأي سعادة غامرة في عينيها.. كان الحجاب يزيدها جمالًا على

فستانها الأبيض.. ضمها لقلبه لأول مرة بعد أن كُتِب كتابهما.. احتضنها لتشعر هي بدقات قلبه.. في الناحية الأخرى يعترف مصطفى لهاجر بحبه لها.. ساد الصمت وبدأ مالك يردد كلمات الأغنية في أذن حور "في كلام لما بيتقال بيغيَّر كل حياتنا معاه على اللي بيتساهلوا ندور طول العمر ونستناه "لتقف على على أطراف أصابعها لتصل لأذنه وتردد مع الأغنية: "أنا من اللحظة دي بقولك أني بحبك أكتر مني "ليضع قُبلة على جبينها تحت شعار الظلام المحيط ثم قال "تتجوزيني.. مش عايز غيرك في الحياة اوعي تسبيني من غير ما أتكلم إنتي بتسمعيني.. عشانك أطول السما لو حبتيني "تضغط بيديها على قلبه لتردد قائلة "والله العظيم بحبك "

ليكمل هو مع الأغنية "الدنيا بتضحك وانتي معايا.. تكشر وانتي بعيد.. أنا شايف فيكي ولادنا ومستقبلنا ودنيا أمان مهما هنكبر ونعجز هفضل أحبك زي زمان.. أنا حاسس إن الكون وياك بشوفه بشكل جديد "انتهى من تمتمة شفتيه بألحان الأغنية في أذنها وهي تشعر بأنها أميرة بالفعل على كوكبه.. تأكدت الآن أن الله يكافئها على تعبها وتحمُّلها وصبرها عليه حتى رجع مالك لها سالمًا غانمًا من سنوات الفقد والضياع.. رجعوا للكوشة الكبيرة التي تضمهم الأربعة.. وبعد استراحة قليلة شربوا فيها عصير البرتقال المعتبر.. جاء أصدقاء مصطفى ومالك لتبدأ معركة الأغاني الشعبية التي افتقدها مالك من زمن.. سحبه مصطفى من يده وأصبحت القاعة مقسومة لدائرتين دائرة فيها مالك ومصطفى ويحيطهم

شباب الفرح وتتعالى ضحكاتهم يرقصون بكل ما أوتوا من قوة ودائرة أخرى بها هاجر وحور تتمايلان على صديقاتهن.. انتهى مالك من هذه الفقرة ليجد السيدة العجوز التي أتته في خطبة هاجر تدخل القاعة.. شعر بأن والدته خرجت من قبرها لتبارك له في فرحه.. كان يشعر تجاهها بإحساس غريب.. كان متأكد أن الله أرسلها لتعوِّضه عن والدته.. ولأنه كان يهتم بها ويتصل بها دومًا، قررت أن تحضر فرحه لأنها تعتبره ابنها.. ذهب إليها وقبَل يديها وأجلسها وشكرها على حضورها.. مرَّ الفرح مليئًا بضحكات ونكات متبادلة بينهم جميعًا.. وبعد أن انتهت الليلة ظل مالك وحور مع مصطفى وهاجر حتى أوصلاهما لمنزلهما واطمأن على أخته وبارك أخيرًا لصديق عمره.. غادر مالك مع زوجته سريعًا للمنزل.. صعد السلالم يحملها بين راحتيه.. تلف هي يديها حول عنقه فتح الباب ودخلا سويًا ولأول مرة يكون معها في مكان بمفردهما.. بدأ الدم يتدفق في جبينها ليهدئها هو قائلًا:

-متخافيش يا حبيبتي.. البيت دا من النهاردة بتاعك.. ومفيش حاجة في الدنيا هتحصل غصب عنك .

اطمأن قلبها وهدأت قليلًا.. حالها مثل أي فتاة في هذا الوضع مضطربة قلقة.. ادخلي غيَّري هدومك وأنا هخش أغير في الحمَّام.. كانت هذه الكلمات التي قالها مالك قبل أن يدخل الحمَّام ليبدِّل ملابسه.. خرج

ليجدها جالسة بفستانها في الصالة.. جلس بجوارها: مالك يا حبيبتي.. متوترة ليه.. أنا حتى زي جوزك .

أخذ يدها ووضع قُبلة عليها ثم خلع حجابها لينسدل عنها شعرها الحريري الأسود الداكن.. وترك لها قُبلة على كتفها وأخرى على رقبتها لتتعلم منها الحنين.. احمر وجهها ولم تتمالك نفسها.. قامت لتبدل ملابسها.. ذهب وراءها ووقف على باب الغرفة لتخرج هي بعد خمس دقائق فاتنة في ثيابها.. ثم قالت:

-أنا هحضرلك الأكل .

ليرد هو مازحًا:

-احنا ياما كلنا.. خدنا إيه من الأكل يعني .

سرحت هي في دنيا أخرى بين السماء والأرض.. وقفت فيها بأطراف أصابعها على رمال الشط لا تريد أن تداعبها المياه.. يعلم جيدًا أنها تخاف من مغازلة البحر لأنها تعلم أنه يستطيع أن يدغدغ مشاعرها.. كانت الشمس لم تشرق بعد.. جاء من ورائها واحتضنها فرجعت بقدميها تقف على قدميه.. فبدأ يتحرك بها ويمشي حتى لامست المياة قدميهما.. علت ضحكاتها فضمها أكثر بعد أن وضع قُبلة على كتفها ومنها على عنقها.. دائمًا تشعر بمعنى الوطن بين أحضانه.. فهي حقًا سكنته وهو استطاع أن يكون لها الوطن .انتبهت من شرودها في هذا المنظر الذي تمنته

بجانبه هو فقط على تقدمه هو من خلفها واحتضنها من ظهرها.. ووضع قُبلة على عنقها.. لتشعر هي بمعنى الحرية في وطن عشقته منذ نعومة أظافرها.. استدارت هي لتقف على قدمة على أطراف أصابعها.. لتتعلق بعنقه وتمر بيدها على تلك اللحية التي تزيده وسامة.. وضعت هي قُبلة على خده بجانب شفتيه ليأخذ أنفاسه من شهيقها وزفيرها.. ليعلم أنها حورية هبطت من الجنة .

تمّت بحمدِ الله

* * *

شُكر خاص

شكر خاص جدًا لعصير الكُتب المكان اللي كان ليه الدور الأساسي في تنبيهي أني ممكن أكتب رواية.. المكان اللي بحس فيه أني في بيتي ووسط عيلتي.. عصير الكتب أحلى عيلة

شكرًا من قلبي بجد لكل اللي ساعدني في إن مالك تشوف النور.. واللي وقفواجنبي من أول يوم كتابة لآخر يوم واللي قرأوها وقالوا رأيهم بمنتهى الصراحة.. واللي كان نقده بنَّاء فادني جدًا في الرواية.. لكل الناس اللي دعولي بظهر الغيب وكانوا مؤمنين بالرواية.

للتواصل مع الكاتب:

https://www.facebook.com/ROMANCE.MAHMOUD